إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

ومعه

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

و

كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء

وبهامشه

كتاب المغني عن حمل الأسفار

في الأسفار لتخريج ما في الإحياء من الأخبار

« مخرجة ومحققة للحافظ العراقي »

راجعه وخرج أحاديثه

محمد سعيد محمد

دراسات عليا في الشريعة الإسلامية

المجلد الخامس

دار البيان العربي

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٤٩٨ / ٢٠٠٥

الناشر
دار البيان العربي
الأزهر ، درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧

كتاب النية والإخلاص والصدق
وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيته إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقرّبين أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة: ٥] فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون؛ والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعمل بغير نِيَّةٍ عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبًا مغمورًا ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣] وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أوّلاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذيْن هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصدق وحقيقته.

الباب الأوّل في حقيقه النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرًا من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام: ٥٢] والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقالﷺ: «إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى ما

هَاجَرَ إِلَيْهِ» (١)، وقال ﷺ: «أَكْثَرَ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الفُرُشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ» (٢)، وقال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء :٣٥] فجعل النية سبب التوفيق.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٣)، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية: وقال ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمالاً حَسَنَةً فَتَصْعَدُ المَلائِكَةِ فِي صُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَلْقُوا هذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِمَا فِيها وَجْهِي ثُمَّ يُنَادِي المَلائِكَةَ اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يا رَبَّنا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُ نَوَاهُ» (٤) وقال ﷺ: «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمًا وَمالاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتانِي اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ ما آتاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتاه اللَّهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتانِي اللَّهُ مِثْلَ ما آتاهُ عَمِلتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ» (٥)، ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساوئه.

وكذلك في حديث أنس بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوامًا ما قَطَعْنا وَادِيًا وَلا وَطِئْنَا مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلا أَنْفَقْنَا نَفَقَةً وَلا أَصَابَتْنا مَخْمَصَةٌ إلاّ شَرِكُونا فِي ذلِكَ وَهُمْ بِالمَدِينَةِ».

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ وليسوا معنا؟ قال: «حَبَسَهُم العُذْرُ فَشَرِكُوا بِحُسْنِ النِّيَّةِ» (٦).

وفي حديث ابن مسعود: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا فَهُوَ لَهُ، فَهاجَر رجل فتزوّج امرأة منا فكان يسمى مُهَاجِرَ أَمْ قَيْسٍ» (٧). وكذلك جاء في الخبر: «إِنَّ رَجُلاً قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَان يُدْعَى قَتِيلَ الحِمَارِ» (٨)، لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته.

وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «مَنْ غَزَا وَهُوَ لا يَنْوِي إلاّ عِقَالاً فَلَهُ ما نَوَى» (٩)، وقال أبي:

---

(١) صحيح: حديث «إنما الأعمال بالنيات». متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

(٢) ضعيف: حديث «أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته». أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة. [ضعيف الجامع: ١٤٠٤]

(٣) صحيح: حديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٤) ضعيف جدًا: حديث «إن العبد ليعمل أعمالا حسنة». أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن، [ضعيف الجامع: ٦٦٠].

(٥) حديث «الناس أربعة: رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر . . . الحديث» وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه «وإنما الدنيا لأربعة نفر . . . الحديث» وقال حسن صحيح.

(٦) صحيح: حديث أنس «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار». أخرجه البخاري مختصرا وأبو داود.

(٧) حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئا فهو له». أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

(٨) حديث «إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار». لم أجد له أصلا في الموصولات، وإنما رواه أبو إسحاق الفراوي في السنن من وجه مرسل.

(٩) حديث «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالا فله ما نوى». أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة.

استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا حتى تجعل لي جعلاً، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ: فقال: «لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إلاَّ ما جَعَلْتَ لَهُ» (١).

وروي في الإسرائيليات، أن رجلاً مرَّ بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعامًا لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعامًا فتصدّقت به.

وقد ورد في أخبار كثيرة: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» (٢).

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «مَنْ كانَتِ الدُّنْيا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَها أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَها أَزْهَدَ ما يَكُونُ فِيها» (٣).

وفي حديث أم سلمة: أن النبي ﷺ ذكر جيشًا يخسف بهم البيداء فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المكره والأجير فقال: «يَحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» (٤)، وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما يَقْتَتِلُ المُقْتَتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ» (٥)، وقال عليه السلام: «إذا الْتَقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ المَلائِكَةُ تَكْتُبُ الخَلْقَ عَلى مَرَاتِبِهِمْ فُلانٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فُلانٌ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فُلان يُقَاتِلُ عَصِبيَّةً ألا فَلا تَقُولُوا فُلانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ» (٦)، وعن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى ما مَاتَ عَلَيْهِ» (٧)، وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة: «إذا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بَسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لأنَّهُ

---

(١) صحيح حديث أبي: استعنت رجلا يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له». أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمي له ثلاثة دنانير فقال النبي ﷺ «ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى»، [صحيح الجامع: ٥٥١١].

(٢) صحيح حديث «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة». متفق عليه وقد تقدم.

(٣) صحيح حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره». أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله: «وفارقها أرغب ما يكون فيها» ودون قوله: «وفارقها أزهد ما يكون فيها» وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو، [صحيح الترغيب: ٣١٦٨].

(٤) صحيح حديث أم سلمة: في الجيش الذي يخسف بهم «يحشرون على نياتهم». أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم.

(٥) صحيح. حديث «إنما يقتتل المقتتلون على النيات». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ «إنما يبعث» ورويناه في فوائد تمام بلفظ «إنما يبعث المسلمون على النيات» ولابن ماجه من حديث أبي هريرة «إنما يبعث الناس على نياتهم» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

(٦) صحيح: حديث «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم». أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. فهو في سبيل الله»، [البخاري: ٢٨١٠، مسلم: ١٩٠٤].

(٧) صحيح: حديث جابر «يبعث كل عبد على ما مات عليه». رواه مسلم.

أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ» (١) . وفي حديث أبي هريرة: «مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لا يَنْوِي أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٍ، وَمَن ادَّانَ دَيْنًا وَهُوَ لا يَنْوِي قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ» (٢) ، وقال ﷺ: «مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ» (٣) .

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرّم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره.

وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يومًا إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملًا لله تعالى فإني لا أحب أن يأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإنّ الهام بعمل الخير كعامله.

وكذلك قال بعض السلف: وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. وقال الحسن: إنما خلّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات. وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثيره، وما أريد به غيري فكثيره قليل. وقال بلال بن سعد: إنّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرًا، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

بيان حقيقة النية:

اعلم أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل.

---

(١) **صحيح**: حديث الأحنف عن أبي بكرة «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». متفق عليه.

(٢) **صحيح لغيره**: حديث أبي هريرة «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان». أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة: الدين، ودون ذكر: الصداق، [صحيح الترغيب: ١٨٠٦].

(٣) حديث «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة». أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسلا.

العلم: يقدمه لأنه أصله وشرطه.

والعمل: يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأنْ كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة. لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بدّ وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بدّ من إرادة. ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقًا للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضارّ المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابًا وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وليس ذلك من غرضنا، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحرّكة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة، وأعني به نزوعًا في نفسه إليه وتوجهًا في قلبه إليه، ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعامًا راغب فيه مريد تناوله عاجزًا عنه لكونه زمنًا؟ لخلقت له القدرة والأعضاء المتحرّكة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرّك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوي في نفسه كون الشيء موافقًا له، فإذا جزمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولا بدّ وأن يفعل، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة.
فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليًّا بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصرًا عنه إلا بالاجتماع؟ وقد يكون أحدهما كافيًا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدًا له ومعاونًا. فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام: فلنذكر لكل واحد مثالاً واسمًا.

أما الأوّل: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارًا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصًا» بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كان كافيًا في الحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة وأنه لولا

قرابته لكان يقضيها بمجرّد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب، في قضاء حاجته، وفقير أجنبي فيرغب أيضًا فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة فكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعًا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأوّل فلنسم هذا «مرافقة للبواعث».

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهمًا فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهمًا فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفردًا لكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقًا لا ثواب في التصدّق عليه لكان لا يبعثه مجرّد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسم هذا الجنس «مشاركة».

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل. ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإنّ ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه.

ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردًا خاليًا لم يفتر عن عمله، وعلم أنّ عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إليه النية. ولنسم هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقًا أو شريكًا أو معينًا. وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإنّ العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل: «إنما الأعمال بالنيات» لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع.

بيان سر قوله ﷺ: «نِيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[1]:

اعلم أنه قد يظن أنّ سبب هذا الترجيح أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل الظاهر، والعمل السر فضل، وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرًا من التفكر، وقد يظن أنّ سبب الترجيح أنّ النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف، لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة

---

(١) ضعيف: حديث «نية المؤمن خير من عمله». أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان، وكلاهما ضعيف [ضعيف الجامع: ٥٩٧٧].

والأعمال تدوم، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرًا من عمله. وقد يقال: إنّ معناه أنَّ النية بمجرّدها خير من العمل بمجرّده دون النية، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً والنية بمجرّدها خير؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى أنّ كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما؛ فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيرًا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود.

فمن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أنّ للغذاء مقصدًا وهو الصحة والبقاء، وأنّ الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبًا لله تعالى عارفًا بالله، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له. فالآنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريدًا له نافرًا عن الشر مبغضًا له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما.

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها. فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفًا، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرئاسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكيد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفًا، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زبرًا ودفعًا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي.

وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة. وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرّغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأنّ بين

الجوارحَ وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون، إلا أنّ القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: «إنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ الجَسَدِ» (١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّةَ» (٢). وأراد بالراعي القلب. وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهي صفة القلب. فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح. ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له.

وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيرًا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود، وهذا كما أنّ المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضًا إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع.

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضًا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإنّ من يجد في نفسه تواضعًا، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقلبه تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدًا أصلًا، لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنه يمسح ثوبًا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلًا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلًا، فيقال: العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل من غفلة، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرًا، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خير من العمل.

وبهذا أيضًا يعرف معنى قوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» لأنّ هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهرب وحب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها

---

(١) **صحيح**: حديث «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد». متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم.

(٢) حديث «اللهم أصلح الراعي والرعية». تقدم ولم أجده.

تأكيدًا، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارًا لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج :٣٧] والتقوى هاهنا صفة القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إنّ قومًا بالمدينة قد شركونا في جهادنا» كما تقدّم ذكره لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات.

وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقسامًا كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

القسم الأوّل: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانًا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيرًا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدوانًا ومعصية. بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا؟ هيهات، بل المروّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى؛ فإنّ القلب إذا كان مائلًا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئًا أشد من الجهل؟ قال: نعم الجهل بالجهل.

وهو كما قال، لأنّ الجهل بالجهل يسدّ بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أنّ رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإنّ من لا يعلم العلم النافع من العلم الضارّ اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أنّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقال النبي ﷺ: «لا يُعْذَرُ الجَاهِلُ عَلَى الجَهلِ، وَلا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ، وَلا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ» (١).

---

(١) حديث «لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله». أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله «لا يعذر الجاهل على الجهل» وقال «لا ينبغي» بدل «ولا يحل» وقد تقدم في العلم.

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرّب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبًا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضًا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول: «إنما الأعمال بالنيات» وقد قصدت بذلك نشر علم الدين؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. وإنما حب الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرئاسة يلبس عليه.

وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفًا من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسبابًا يستعين بها على مقصوده؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوّة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي.

وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلاثَمِائَةِ خُلقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الجَنَّةَ وَأَحَبُّها إِلَيْهِ السَّخَاءُ»[(١)]. فليت شعري لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمدّه بغيره؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرًا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه تقصيرًا في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجورًا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوّذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوّذوا من الفاجر الجاهل، حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره، حتى قال: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت

---

(١) حديث «إن لله ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء». تقدم في كتاب المحبة والشوق.

قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم.

وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدّم على الأقران. فإن قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة.

القسم الثاني: الطاعات. وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل؛ فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة فإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها[١]. كما ورد به الخبر. ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقرّبين.

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال: «مَنْ قَعَدَ فِي المَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ وَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ»[٢].

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُواْ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

وثالثها: الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإنّ الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي القُعُودُ في المَسَاجِدِ»[٣].

ورابعها: عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر: «من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى»[٤].

---

(١) حديث: تضعيف الحسنة بعشر أمثالها. تقدم.

(٢) حديث «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره». أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة.

(٣) حديث «رهبانية أمتي القعود في المساجد». لم أجد له أصلا.

(٤) حديث «من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى». هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجه» وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح».

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكًا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخًا في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخًا مستفادًا في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علمًا مستظرفًا، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء. فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه. فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث: المباحات. وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئًا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال ﷺ: «حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ» (١).

وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِإِصْبَعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ» (٢).

وفي خبر آخر: «مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية. فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله؟ فاعلم: أنّ من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأوّل وهو التلذذ والتنعم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب.

ومن أتى شيئًا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسرانًا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النية الحسنة فإنه ينوي به اتباع

(١) حديث «حلالها حساب وحرامها عذاب». تقدم.

(٢) حديث معاذ «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه». لم أجد له إسنادا.

سنة رسول الله ﷺ يوم الجمعة[1]. وينوي بذلك أيضًا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرًا لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه. وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء. والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرّب إلى الله تعالى، لأنّ كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوّي على العبادة. ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعًا بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب.

ففي الخبر: «إنَّ العَبْدَ لَيُحَاسَبُ فتبطل أعمالُهُ لدخولِ الآفةِ فيها حتى يستوجبَ النَّارِ، ثم ينشرُ له من الأعمالِ الصَّالِحَة ما يستوجبُ به الجَنَّةَ فَيتعجبُ ويقول: يا رَبُّ هذِهِ أَعْمَالٌ ما عَمِلْتُها قَطُّ؟ فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذَوْكَ وظلموك»[2]، وفي الخبر: «إنَّ العَبْدَ ليوافي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال

---

(١) **صحيح:** حديث «إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة». أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه... الحديث» ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته» وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين: أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال: «يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة... الحديث».

(٢) حديث «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصرا «إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر» وفيه ابن لهيعة.

الجِبَالِ لو خلصت له لدخلَ الجَنَّةَ فيأتي وقد ظَلَمَ هذا وَشَتَمَ هذا وَضَرَبَ هذا فيقتصُّ لِهذا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهذا مِنْ حسناته حتى لا يبقى لَهُ حسنة. فتقول الملائكة: قد فَنِيَتْ حسناتهُ وبقيَ طالبونَ فيقولُ اللَّهُ تَعَالَى أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكًا إِلَى النَّارِ» [1].

وبالجملة؛ فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئًا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فإنّ الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق :١٨] وقال بعض السلف: كتبت كتابًا وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرّجت ثم قلت: تراب وما تراب فتربته فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقى غدًا من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمدّ يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن ذلك فقال: إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله.

وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول:

بيني وبينك الله فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطًا من ثوبي.

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين، فإن كنت من أولي العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرّك ما لم تتأمل أوّلاً أنك لم تتحرك، وماذا تقصد، وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك، ثم راقب أيضًا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار.

فقد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيرًا لقوم فقدّموا له رغيفًا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إليَّ الرغيف لأتقوّى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض. وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه.

وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف فإنّ النية لا تدخل تحت الاختيار.

---

(١) حديث «إن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال». تقدم مع اختلاف.

بيان أنّ النية غير داخلة تحت الاختيار:

اعلم أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ: «إنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرّس لله أو آكل لله. ويظنّ ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرّد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلانًا وأحبه وأعظمه بقلبي، فذلك محال.

بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قدم يقدر عليه وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده.

وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغًا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضًا صحيحًا في الولد دينًا ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح [1] اتباعًا لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية. نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوي أوّلاً إيمانه بالشرع ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحرّكه تلك الرغبة وتتحرّك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحرّكة للسان بقبول العقد طاعة لهذا. الباعث الغالب على القلب كان ناويًا، فإن لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان.

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية، حتى إن ابن سيرين لم يصلِّ على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى، فقالت: أجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك فقال: كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى. ومات حماد بن سليمان، وكان أحد علماء أهل الكوفة، فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت.

وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت. وكان طاوس لا يحدّث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدّث فلا يحدّث، ولا يسأل فيبتدئ فقيل له في ذلك قال: أفتحبون أن

---

(١) حديث «إن النكاح سنة رسول الله ﷺ». تقدم في آداب النكاح.

أحدّث بغير نية؟ إذا حضرتني نية فعلت.

وحكي أنّ داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحًا ورده فقال مالك: قال فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد، فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت، قال أحمد: فرده عليَّ حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيرًا فقد انتفعت به.

وقيل لطاوس: ادع لنا فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد. وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي.

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها. نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبًا.

ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته.

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا، وهذه أعز النيات وأعلاها، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها. ونيات الناس في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء، ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله.

وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبًا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشدّ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيرًا من التفاوت بين جمال الحور العين

والصور المصنوعة من الطين، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود :١١٨]، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون :٥٣]، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود :١١٩].

حكي أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني، ورأى أبو يزيد ربه في المنام قال: يا رب كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال إليَّ.

ورؤي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد: قلت يومًا أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال: أي خسارة أعظم من خسران لقائي.

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها.

ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول: من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات. وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوّى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له.

بل لو ملَّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونًا لي على الحق.

وقال علي كرم الله وجهه: روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت. وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أوّلاً قوته ليحتمل المعالجة بالضدّ، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجانًا ليتوصل بذلك إلى الغلبة، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه.

وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكرّ عليه فيقهره. فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكارًا على ما يراه من شيخه ولا

للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف عند حدّ بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأنْ يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق.

الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة :٥] وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزمر :٣] وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[النساء :١٤٦] وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف :١١٠] نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه.

وقال النبيﷺ: «ثَلاثٌ لا يغلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إخلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ»(١)، وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظنّ أبي أنّ له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول اللهﷺ فقال النبيﷺ: «إنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هذِهِ الأُمَّةَ بِضُعَفَائِهَا وَدَعْوَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ»(٢). وعن الحسن قال: قال رسول اللهﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الإخْلاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي»(٣)، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول، فإن النبيﷺ قال لمعاذ بن جبل: «أَخْلِصِ العَمَلَ يَجْزِكَ القَلِيلُ»(٤)، وقال عليه السلام: «ما مِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلَّهِ العَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إلاّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَة مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»(٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّه العِلْمَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعالَى ما صَنَعْتَ فِيما عَلِمْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ كُنْتُ أَقُومُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالى كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالُ فُلانٌ عَالِمٌ ألاَ فَقَدْ قِيلَ ذلِكَ. وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرافَ النَّهَارِ.

---

(١) صحيح: حديث «ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله». أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير، [صحيح الجامع: ٦٧٦٦].

(٢) صحيح: حديث مصعب بن سعد عن أبيه: أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبيﷺ فقال النبيﷺ: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم». رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

(٣) حديث الحسن مرسلا «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي». رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواته: سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبيﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

(٤) ضعيف: حديث أنه قال لمعاذ «أخلص العمل يجزك منه القليل». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع، [ضعيف الترغيب: ٢].

(٥) حديث «ما من عبد يخلص لله أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم.

فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ماذا صَنَعْتَ فَيَقُولُ، يا رَبِّ أُمِرْتُ بِالجِهادِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَلائِكَةِ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالُ فُلانٌ شُجاعٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذلِكَ» قال أبو هريرة، ثم خبط رسول الله ﷺ فخذي وقال: «يا أَبا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)].

فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾[هود: ١٥] الآية.

وفي الإسرائيليات: أن عابدًا كان يعبد الله دهرًا طويلًا فجاءه قوم فقالوا: إنّ هاهنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، قال: وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرّغت لغير ذلك فقال: إنّ هذا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا إنّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد: لا بدّ لي من قطعها، فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئًا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيًا بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئًا. فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة فقال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها، قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أوّل مرة فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أوّل مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرّة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

---

(١) حديث «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة». قد تقدم.

وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وقال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

وقال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشدّ عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه. ورؤي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرّة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابًا فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها؟ فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك: قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدّقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي.

قال سفيان لما سمع هذا: ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم.

وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم، فاتفق أن حضر يومًا موضعًا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة.

وقال بعض الصوفية: كنت قائمًا مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد: لا، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا، قلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرّضت لمقت الله تعالى، لأني أدخل في عمل الله شيئًا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة.

ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأنّ شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملي عليه، خرج فلان متنزهًا وفلان مرائيًا وفلان تاجرًا وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب فلان خرج تاجرًا، فقلت . الله الله في أمري ما خرجت

أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجرًا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى؟ فقال: أكتب خرج فلان غازيًا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى. وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثًا أو سبعمائة بعلو.

وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. ويقال: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص.

وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبدًا أعطاه ثلاثًا ومنعه ثلاثًا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها. وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط.

وقال الجنيد: إنّ لله عبادًا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل. فإذن أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين.

بيان حقيقة الإخلاص:

اعلم أنّ كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصًا، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصًا. قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل :٦٦] فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية. والشرك، منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضدّه يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات.

وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصًا بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص. ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ما ورد في الخبر من: «إنَّ المُرَائِي يُدْعَى يَوْمَ القِيامَةِ بِأَرْبَعِ أسام: يا مُرَائِي يا مُخَادِعُ يا مُشْرِكُ يا كَافِرُ» (١).

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من

(١) حديث: «إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام: يا مرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والإخلاص وقد تقدم.

غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب. أو يعتق عبدًا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عدوّ له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أيامًا. أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها. أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله. أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزًا بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروسًا بعز العلم عن الأطماع.

أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث. أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقًا في الدنيا. أو كتب مصحفًا ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه.

أو حج ماشيًا ليخفف عن نفسه الكراء. أو توضأ ليتنظف أو يتبرد. أو اغتسل لتطيب رائحته.

أو روى الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن. أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها. أو تصدّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه. أو يعود مريضًا ليعاد إذا مرض. أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئًا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى: «أَنَا أَغْنى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِكَةِ».

وبالجملة؛ كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس.

فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة، وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية وبالجملة؛ فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصوّر إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضًا، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر

الضرورة مطلوبًا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى.

فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصًا، فالذي يغلب على نفسه: الدنيا والعلوّ والرئاسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرًا. فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص.

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكي عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأوّل لأني تأخرت يومًا لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنّ نظر الناس إليَّ في الصف الأوّل كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر.

وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلهما في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨] وبقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] وأشد الخلق تعرضًا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ. وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظًا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابًا وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودًا أم مذمومًا؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذمومًا، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر. فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع

ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠] فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص:

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب؛ وهو من جملة الآفات. والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرّض لآفة واحدة. وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى. وقيل لسهل: أي شيء أشدّ على النفس؟ فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب. وقال رويم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين.

وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً وعاجلاً، والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل لا يتحرّك الإنسان إلا لحظ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر. وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدّعي البراءة من الحظوظ وقال: هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظًا، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرّد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعدّه الناس حظًا بل يتعجبون منه.

وهؤلاء لو عوّضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سرًّا وجهرًا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه؛ فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره. وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط. وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط؛ ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه؛ فإنه إشارة إلى مجرّد الإخفاء.

وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق. وهذا أجمع للمقاصد. وقال المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب. وهذا إشارة إلى مجرّد نفي الرياء. وكذلك قول الخوّاص: من شرب من كأس الرئاسة فقد خرج عن إخلاص العبودية.

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد. وهذا أيضًا تعرّض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوّشة

للإخلاص. وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها. وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة.

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأوّلين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت» (١). أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقًّا.

بيان درجات الشوائب الآفات المكدرة للإخلاص:

اعلم أن الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوّشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالاً.

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصًا في صلاته؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته؛ وهذا هو الرياء الظاهر؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدي بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن احسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأوّل، وهو أيضًا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرًا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفًا به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعًا زائدًا على عادته،

---

(١) **صحيح**: حديث: سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول: ربي الله ثم تستقيم كما أمرت». لم أره بهذا اللفظ وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل ربي الله ثم استقم». وهو عند مسلم بلفظ: قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال «قل آمنت بالله ثم استقم».

فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضًا كذلك. فهذا أيضًا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملا وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملا جميعًا، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملا والخلا جميعًا، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببًا فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء [١].

كما ورد في الخبر، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنًا لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوبًا يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرّك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرًا.

(١) حديث «الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة». تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء.

ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم. ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالاً، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضًا فلا فائدة في التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به:

اعلم أنّ العمل إذا لم يكن خالصًا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثوابًا أم يقتضي عقابًا أم لا يقتضي شيئًا أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعًا وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له [(١)].

وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرّب. وإن كان قصد التقرّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة :٧-٨] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء :٤٠] فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالبًا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبًا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. وكشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها. فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوّته العمل على وفقه. وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضًا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما. فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوّته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالبًا لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب

---

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال: وليس تخلو الأخبار عن تعارض. رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له...» الحديث. وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال «لا شيء له» فأعادها - ثلاث مرات - يقول «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه» وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال «له أجران أجر السر وأجر العلانية» وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقرّبه شبرًا مع ما يبعده شبرًا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقرّبه شبرين والآخر يبعده شبرًا واحدًا فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي ﷺ: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[(١)]، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعًا فلا بدّ وأن يتدافعا بالضرورة. ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجًا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. نعم يمكن أن يقال: إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما.

وعندي: أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلًا؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدّق فيجب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠][(٢)]. وقد قصد الأجر والحمد جميعًا. وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ»[(٣)]، وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ: «يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ»[(٤)]. وروي عن عبادة: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكَةِ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا فَأَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي وَدَعْتُ نَصِيبِي لِشَرِيكِي» وروى أبو موسى: أن أعرابيًا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله فقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[(٥)].

---

(١) حديث «أتبع السيئة الحسنة تمحها». تقدم في رياضة النفس وفي التوبة.

(٢) حديث طاوس وعدة من التابعين: أن رجلا سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [**الكهف**: ١١٠]. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

(٣) حديث معاذ «أدنى الرياء شرك». أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم.

(٤) حديث أبي هريرة «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له». تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة «من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» وفي رواية مالك في الموطأ «فهو له كله».

(٥) حديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». تقدم فيه.

وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقًا. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ؟» (١).

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «من هاجر يبتغي شيئًا من الدنيا» وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبدًا في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠] أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال أيضًا: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو. وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة لا ثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا. نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظنّ أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء. فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبدًا بعد كمال الاجتهاد مترددًا بين الرد والقبول خائفًا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها.

وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتدّ بما ظهر من عملي. وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي. ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص.

ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعًا.

وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يومًا يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

---

(١) حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له». تقدم في الباب الذي قبله.

الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق:

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣] وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ وَالبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَالفُجُور يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»(١)، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[مريم: ٤١] وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[مريم: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[مريم: ٥٦] وقال ابن عباس: أربع من كنّ فيه فقد ربح؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس. وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصور الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقًا فقال له: لو كنت صادقًا لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكتاني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنيًا على ثلاثة أركان؛ على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول. وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[الزمر: ٦٠] قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته. وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة، فقال الشبلي: إن كان صادقًا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبًا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون. وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم.

وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفًا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: حديث «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة». متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

وقال أبو بكر الورّاق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق.
وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيلُ
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيلُ

وقيل لسهل: ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة. فقيل: زدنا، فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: «قَوْلُ الحَقِّ وَالعَمَلُ بِالصِّدْقِ»(١)، وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضًا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إمّا أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشئ على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أنّ ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهمًا غير ما هو عليه، لأنّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً، كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره(٢)، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ أَنْمَى خَيْرًا»(٣)، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح

---

(١) حديث ابن عباس: سئل عن الكمال فقال: قول الحق والعمل بالصدق. لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) **صحيح**: حديث كان إذا أراد سفرا وَرّى بغيره. متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

(٣) حديث «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا». متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم.

بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق هاهنا يتحوّل إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادته صار صادقًا وصديقًا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه ما حكي عن بعضهم، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو هاهنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار. فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضًا إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فإن قلبه إن كان منصرفًا عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقًا، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبدًا لنفسه أو عبدًا لدنيا أو عبدًا لشهواته لم يكن صادقًا في قوله.

وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا وقال نبينا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الحُلَّةِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ»[(١)]، فسمي كل من تقيد قلبه بشيء عبدًا له.

وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حرًّا مطلقًا، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغًا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرّية وهو أن يعتق أيضًا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرًّا، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرًّا. وصار مفقودًا لنفسه موجودًا لسيده ومولاه إن حرّكه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصدّيقين. وأما الحرّية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقًا ولا صديقًا: فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم فإنه[(٢)] لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك

---

(١) صحيح: حديث «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث الثلاثة: حين سأل العالم ماذا علمت فيما عملت؟. تقدم.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر.

وهذا القول يتضمن إخبارًا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصًا.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه، أو بشطره، أو إن لقيت عدوًا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال: لفلان شهوة صادقة.

ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد: بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدّم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصدّيق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع قال: فشهد أُحدًا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واها لريح الجنة إني أجد ريحها دون أُحُد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه، فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][١].

ووقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أُحُد شهيدًا وكان صاحب

---

(١) صحيح: حديث أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه. أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصرا إن هذه الآية نزلت في أنس بن النضير.

لواء رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣][1] . وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإيمَانِ لَقِيَ العَدُوَّ، فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ هكَذَا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَى وقعت قلنسوته قال الراوي: فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ، وَرَجُلٌ جَيِّدُ الإيمان إذا لقي العَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْح أتاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذلِكَ في الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ»[2] ، وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالاً لنتصدّقن فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] فجعل العزم عهدًا وجعل الخلف فيه كذبًا والوفاء به صدقًا. وهذا الصدق أشدّ من الصدق الثالث، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدّته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر . اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئًا لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد الخرّاز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائمًا بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابًا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتًا إلى الخلق ولا مرائيًا إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرًا من ظاهره. ومن

---

(١) حديث: وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وقرأ هذه الآية ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤] أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا.

(٢) ضعيف: حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب «الشهداء أربعة». أخرجه الترمذي وقال حسن، [ضعيف الجامع: ٣٤٤٦].

خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبًا في دلالة الظاهر على الباطن.

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص؛ وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَل سَرِيرَتِي خَيْرًا مِنْ عَلانِيَتي وَاجْعَل عَلانِيَتِي صَالِحَةً»(١).

وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وأنشدوا:

إذا السرّ والإعلان في المؤمن استوى	فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرًا فما له	على سعيه فضلٌ سوى الكدّ والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافقٌ	ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقًا.

وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكّاء بالليل بسّام بالنهار. وقال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشي كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له. ولم أر أحدًا قط أشبه سريرة بعلانية منه.

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول: إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة، ويبكي. وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا فيه، كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧] وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية(٢).

ولنضرب للخوف مثلًا: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفًا ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف. سلطانًا أو قاطع

---

(١) حديث «اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحة». تقدم ولم أجده.

(٢) حديث أبي ذر: سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾، رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له إسنادا.

طريق في سفر كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفًا من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه. ولذلك قال ﷺ: «لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلا مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا» (١)، فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدًا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقًا فيه، فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها.

ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «أحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ» فقال لا تطيق ذلك قال: «بل أرني» فواعده البقيع في ليل مقمرة فأتاه فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سدّ الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي مغشيًا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأول، فقال النبي ﷺ: «ما ظننت أن أحدًا من خلق الله هكذا» قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع (٢).

يعني كالعصفور الصغير، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم.

وقال جابر قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى» (٣). يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمق أهون من بعض، وقال النبي ﷺ: «لا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ثُمَّ يرْجِع إِلَى نَفْسِهِ فَيَجدُها أَحْقَرَ حَقِيرٍ» (٤)، فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز. ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقًا في الجميع فهو الصديق حقًا. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهن ضعيف؛ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدّثت نفسي

---

(١) حديث «لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها». تقدم.

(٢) حديث: قال لجبريل: «أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك» فقال: لا تطيق ذلك. تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

(٣) **صحيح**: حديث «مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى». أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد وهذا مرسل، **[الصحيحة: ٢٢٨٩]**.

(٤) حديث «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير». لم أجد له أصلا في حديث مرفوع.

ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق، فقال ابن المسيب: ما ظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام. فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ؟ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب، لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد:١٩] وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضًا غير محيط بجميع الأقسام وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج:٧٨] وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبدًا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابرًا اتخذته وليًا وحبيبًا، وإن وجدته جزوعًا يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي. فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعًا وكراهة اطلاع الخلق عليها.

تم كتاب الصدق والإخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة، والحمد لله.



كتاب المراقبة والمحاسبة
وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض تحرّكت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدّمت وأخرت، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصرته انقطعت مكائد الشيطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت، فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران :٢٠٠] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

المقام الأوّل من المرابطة: المشارطة:

اعلم أنّ مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس :٩-١٠] وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة. والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أنّ الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوّلاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها بالفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائمًا وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمًا وقد انقضى الخير. ولذلك قيل:

أشدّ الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإنّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها،

واعلمي يا نفس أنّ اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر: «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح لها منها خزانة فيراها مملوءة نورًا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه» (١)، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبنًا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار. وقد قال بعضهم: هب أنّ المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن :٩] فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإنّ لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين: فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإنّ الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنّة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر: فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق :١٨].

---

(١) حديث «ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة». الحديث بطوله لم أجد له أصلا.

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشهوات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة. ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئًا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها. وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء. واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أيامًا وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق. ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد: فإن النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات :٥٥] فهذا وما يجري مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة :٢٣٥] وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة. فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ [النساء :٩٤] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات :٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق :١٦] ذكر ذلك تحذيرًا وتنبيهًا للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت: أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه:

«إذا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّر عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رَشَدًا فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيًّا فَانْتَهِ عَنْهُ» [(١)]. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالبًا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة. وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة. وروى شدّاد بن أوس عنه أنه ﷺ قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ» [(٢)]. دان نفسه: أي حاسبها. ويوم الدين: يوم الحساب. وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات :٥٣] أي لمحاسبون. وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيؤوا للعرض الأكبر. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة. وقال لكعب: كيف تجدها في كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان

---

(١) حديث عبادة بن الصامت «إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فانته عنه». تقدم.
(٢) حديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت». تقدم.

السماء؛ فعلاه بالدرّة وقال: إلا من حاسب نفسه، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه. وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت. ومعناه: وزن الأمور أوّلاً وقدّرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

المرابطة الثانية: المراقبة:

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفضيلة: فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» [1]، وقال عليه السلام: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [2]، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد :٣٣] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق :١٤] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء :١] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج :٣٢-٣٣] وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى؛ فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدًا كأنك ترى الله عز وجل. وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدي رقيبًا علي فلا أبالي بغيره. وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على أصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائمًا. وقال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ولا يغرّنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدّمه فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدّة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد، ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا ورجع الشاب والطائر حي في يده، فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعًا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع عليَّ في كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرَّم.

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحي؟ فقال: ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟ وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر. فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من

---

(١) حديث: سأل جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه». متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم.

(٢) حديث «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». تقدم.

نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل. وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة، قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عز وجل: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أوّلها علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى أنّ الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن. وقال محمد بن علي الترمذي:

اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأنّ الله شاهده حيث كان. وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة :٨] فقال معناه: ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده. وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس، استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب. وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ
ألم ترَ أن اليومَ أسرع ذاهب ... وأن غدًا للناظرين قريبُ

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خاليًا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظنّ أنه لا يراك فلقد كفرت. وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. وقال فرقد السبخي: إنّ المنافق ينظر فإذا لم ير أحدًا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له: يا راعي بعني شاة من هذا الغنم، فقال: إني مملوك، فقال: قل لسيدك أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانًا ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب. أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع

على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفسٍ بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا أعني أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته؛ فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين.

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرًا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد. بل يسدّد الرعية من ملك كلية الراعي، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همه همًا واحدًا فكفاه الله سائر الهموم. ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني. ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له. وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعًا حتى دخل عتبة الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحدًا. ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه مرّ بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جدارًا.

وحكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدًا منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك. فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه. فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرّك إلا بما هو فيه. ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنًا حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة. وقال أبو عبد الله بن خفيف، خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد إن في صور شابًا وكهلاً قد اجتمعا على حال

المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؟ فدخلت صورًا وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف، ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا؛ قال: فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئًا ولا شربا، فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله، والسلام؛ قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة.

نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعًا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك. وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به، لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى. ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته. وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل. أمّا قبل العمل؛ فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه، فإن في الخبر: إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ [1] ومعنى «لمَ» أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن

(١) حديث «ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول لم. والثاني كيف. والثالث لمن». لم أقف له على أصل.

سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن لله في كل عمل شرطًا وحكمًا لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت ألوجه الله خالصًا وفاء بقولك: «لا إله إلا الله» فيكون أجرك على الله؟ أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك؟ وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبدًا لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف :١٩٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت :١٧] ويحك أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر :٣] فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابًا وليكن الجواب صوابًا، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرّك جفنًا ولا أنملة إلا بعد التأمل. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَل عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتِّهِ الطِّينَ بِأَصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ» [١]، وقال الحسن، كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه. وقال الحسن: رحم الله تعالى عبدًا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان: «اتق الله عند همك إذا هممت» [٢]، وقال محمد بن علي: إنّ المؤمن وقّاف متأنّ يقف عند همه ليس كحاطب ليل. فهذا هو النظر الأوّل في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة. بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولا تظنن أنّ الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فإنّ الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأوّل وهو

---

(١) حديث: قال لمعاذ «إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه». تقدم في الذي قبله.

(٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان: «أن اتق الله عند همك إذا هممت». أخرجه أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم.

الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه.

ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين، وليفرّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدّ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالمًا أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي. فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن همة المريد أوّلاً في أحكام العلم، أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ البَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبهَاتِ وَالعَقْلَ الكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ» (١)، جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقًا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات. ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا» (٢)، فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار، فإنّ الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجرّدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر: «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت» (٣)، ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة وغيرهم. فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال: «فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» (٤) وَكُلُّ مَنْ خَاضَ فِي شُبْهَةٍ بِغَيْرِ تَحْقِيقٍ فَقَدْ خَالَفَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء :٣٦] وقوله عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ» (٥)، وأراد به ظنًا بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه. ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه: اللهم أرني الحق حقًا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهًا علي فأتبع الهوى. وقال عيسى عليه السلام: «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه

---

(١) حديث «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور.

(٢) حديث «من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا». تقدم ولم أجده.

(٣) حديث «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت». لم أجده.

(٤) حديث «فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا». تقدم.

(٥) حديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». تقدم.

وأمر أشكل عليك فكِله إلى عالمه» [١]، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» [٢]، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانًا على عبده: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢] وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

وقال علي كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة، ونعم طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامة، رب بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب، والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن، نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل، وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعًا على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحًا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفًا، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت. وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: «ومن التوفيق التوقف عند الحيرة» فإذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى؟

وقد قال ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إيمَانَهُ: لا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَلا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَإذا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا» [٣] وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحًا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ: «مَنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ» [٤].

النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب. فإن كان قاعدًا مثلًا فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ: «خَيْرُ المَجَالِسِ ما اسْتُقْبِلَ بِهِ القِبْلَةَ» [٥]، ولا يجلس متربعًا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: جلست مرة متربعًا فسمعت هاتفًا يقول: هكذا تجالس

---

(١) حديث «قال عيسى الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه». أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٢) حديث «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم». لم أجده.

(٣) حديث «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٤) حديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». تقدم.

(٥) حديث «خير المجالس ما استقبل به القبلة». أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم.

الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعًا. وإن كان ينام، فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر.

وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بدّ له من الصبر عليها ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١] فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغًا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإنّ من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة. فإنّ الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها؟ وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه. فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام: «لا يَكُونُ المُؤْمِنُ ظَاعِنًا إلاَّ فِي ثَلاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ» (١)، وما روي عنه أيضًا في معناه: «وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب» (٢)، فإن في هذه الساعة عونًا له على بقية الساعات. ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال

---

(١) حديث أبي ذر «لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث: تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم». أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه ﷺ قال إنه في صحف موسى وقد تقدم.

(٢) حديث «وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب». وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله.

الجوارح. والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته، وهذا مقام الزاهدين.

وقسم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سببًا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدًا.

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئًا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» [(١)]، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل.

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها:

أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر :١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وفي الخبر: أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال: «أَمُسْتَوْصٍ أَنْتَ؟» فقال نعم، قال: «إذَا هَمَمْتَ بِأَمْر فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رَشَدًا فامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيًّا فَانْتَهِ عَنْهُ» وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات يحاسب فيها نفسه. وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور :٣١] والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه. وقد قال ﷺ: «إنِّي لأَسْتَغْفِرَ اللَّه تَعَالَى وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي اليَوْم مائَةَ مَـرَّةٍ» [(٢)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف :٢٠١] وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم؟ وعن ميمون بن مهران أنه قال:

(١) **صحيح**: حديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، .
(٢) حديث «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة». تقدم غير مرة.

لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليَّ من عمر، ثم قال لها كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال فقال: لا أحد أعز علي من عمر. فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها «وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى، ندمًا ورجاء للعوض مما فاته»[(١)].

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرّب نفسي هل تنكره؟ وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يومًا وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط؛ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة :٢] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبدًا قال لنفسه؛ ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدًا، وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه. وقال ميمون بن مهران: التقي أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح. وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدين؟ فقلت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا قلت: فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار:

سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني. وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل، الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل:

اعلم أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها. كما يفعل

---

(١) حديث أبي طلحة: حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة. تقدم غير مرة.

التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصًا منهم على الدنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه بما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك. ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي. وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أوّلاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإنّ فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرّط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ملبسة مكارة، فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت؟ وعن سكونه لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس. وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوبًا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون. أما بعضها: فبالغرامة والضمان، وبعضها: برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء. ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبًا لنفسه؛ فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرّ مغشيًا عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة؛ ولو رمى العبد بكل معصية حجرًا في داره لامتلأت داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة :٦].

المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها:

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته.

هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة. فقد روي عن منصور بن إبراهيم: أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست. وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زمانًا طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهمَّ بها، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدًا فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت؛ فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره.

ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبي يقول: أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة، فوجدت في نفسي تأخرًا وتقصيرًا فحدّثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسي فقلت: واعجبًا أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له عليّ حق فلا أجد فيّ المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس. ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك. ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ويحكى أن حسان بن أبي سنان مرَّ بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة فصامها. وقال مالك بن ضيغم: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفًا فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئًا، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شاء وما يدريك أنّ هذا ليس وقت نوم؟ تتكلمين بما لا تعلمين؟ أما إن لله علي عهدًا لا أنقضه أبدًا لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل، سوأة لك أما تستحين كم توبخين؟ وعن غيك لا تنتهين؟ قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته.

ويحكى عن تميم الداري أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد؛ فقام سنة لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع. وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: «انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي ونار جهنم أشدّ حرًا أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي فقال له النبي ﷺ: «أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فُتِحتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّماءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللَّهُ بِكَ المَلائِكَةَ» ثم قال لأصحابه: «تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ» فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي يا فلان ادع لي فقال النبي ﷺ: «عمهم» فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: «اللهم سدّده» فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم»[(١)]

---

(١) حديث طلحة: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي، ونار جهنم أشد حرا! أجِيفَةٌ بالليل بَطَّالَةٌ بالنهار؟ الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل، ولا أدري مَنْ طلحة هذا.

وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلي منها فكيف أعطيها شهواتها؟ ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له. وعن وهب بن منبه: أن رجلًا تعبد زمانًا، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتًا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه وقال: منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك. وقال عبد الله بن قيس: كنا في غزاة لنا فحضر العدو، فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت لأرمقنه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعًا، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة. وقد ذكرنا حديث أبي طلحة: لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك. وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول: ماذا عملت اليوم؟ وعن مجمع: أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا. وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئًا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه: ويحك إنما أريد بك الخير. ورأى محمد بن بشر داود الطائي، وهو يأكل عند إفطاره خبزًا بغير ملح فقال له: لو أكلته بملح فقال: إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحًا ما دام في الدنيا.

فكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغيانًا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونًا من الوظائف جبرًا لما فات منه وتداركًا لما فرط؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم، وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى

طلع كوكبان فأعتق رقبتين. وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة. وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بجميع ماله. كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟.

فأقول: سبيلك في ذلك كأن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين (١). ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدي به. وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعًا. إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم وما أشدّ حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك. ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَقْوَامًا يَحْسَبُهُمُ النَّاسُ مَرْضَى وَ مَا هُمْ بِمَرْضَى» (٢).

قال الحسن: أجهدتهم العبادة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» (٣).

ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين، فيقولون: إلهنا خوفتهم شيئًا فخافوه وشوّقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشدّ اجتهادًا. وقال الحسن: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين

---

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين. أخرجها أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته» وللترمذي من حديث بلال «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم... الحديث» وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك.

(٢) حديث «رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وما هم بمرضى». لم أجد له أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه: ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض.

(٣) حديث «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله». أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة «عن» وهو مدلس وللترمذي من حديث أبي بكرة «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» وقال حسن. صحيح وقد تقدم.

الأرض شيئًا قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى أنّ قومًا دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال عمر له: يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله إلا صدقتني فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.

وقال أبو نعيم: كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ودخل رجل عليه يومًا فقال: إنّ في سقف بيتك جذعًا مكسورًا فقال: يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام. وقال محمد بن عبد العزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال: إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة. وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له. وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر. وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحرّ حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذّب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد. وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا؟ فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به. وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالسًا ألف ركعة، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك عجبت للخليقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري. وقال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئي مضطجعًا إلا في علة الموت. وقال الحارث بن سعد: مرّ قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدّة اجتهاده، فكلموه في ذلك فقال: وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم؟ فبكى القوم عن آخرهم. وعن أبي محمد المغازلي قال: جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمدّ رجليه، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له: يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا؟ فقال: علم صدق باطني فأعانني على ظاهري، فأطرق الكتاني ومشى مفكرًا. وعن بعضهم قال: دخلت على فتح

الموصلي فرأيته قد مدّ كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك، نعم بكيت دمًا فقلت له: على ماذا بكيت الدموع؟ فقال: على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع؟ قال: فرأيته بعد موته في المنام فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت له: فماذا صنع في دموعك؟

فقال: قرّبني ربي عز وجل وقال لي: يا فتح الدمع على ماذا؟ قلت: يا رب على تخلفي عن واجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ فقلت على دموعي أن لا تصح لي، فقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة.

وقيل: إنّ قومًا أرادوا سفرًا فحادوا عن الطريق، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته، فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق؟ فأومأ برأسه إلى السماء، فعلم القوم ما أراد، فقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال: سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث، فعجب القوم من كلامه، فقالوا: يا راهب علام الخلق غدًا عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: أوصنا، فقال: تزودوا على قدر سفركم فإنّ خير الزاد ما بلغ البغية. ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته.

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف عليَّ وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذلّ لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته، وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت: يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقرّبه من ربه.

وقيل لداود الطائي: لو سرحت لحيتك. فقال: إني إذن لفارغ. وكان أويس القرني يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة. وقيل: لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك قال: الرفق أطلب دعيني أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً. وحج مسروق فما نام قط إلى ساجدًا. وكان سفيان الثوري يقول: عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى. وقال عبد الله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل.

وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة، ثم كان يبكي ويقول: ذهب نصف عملي. وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه إنّ أباك يخاف البيات. ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلاً قال: نعم يا أماه، قالت:

فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك، فيقول: يا أماه هي نفسي. وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال: سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي: يا أختي جوفي وخواصري تضرب عليَّ، فقالت له أمي: يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها: ويحك أخاف أن يقول: أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري إيش أقول له. فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم. قال عمر: ورأت أمي ما ببشر من شدّة الجوع وجعل يتنفس نفسًا ضعيفًا فقالت له أمي: يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعته يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها عليَّ. قال عمر: وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار. وقال الربيع: أتيت أويسًا فوجدته جالسًا حتى صلى الفجر، ثم جلس فجلست فقلت: لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نوّامة ومن بطن لا تشبع فقلت: حسبي هذا منه، ثم رجعت. ونظر رجل إلى أويس فقال: يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض؟ فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضًا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم. وقال أحمد بن حرب: يا عجبًا لمن يعرف أنّ الجنة تزين فوقه وأنّ النار تسعر تحته كيف ينام بينهما. وقال رجل من النساك: أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءًا فحاك ذلك في صدري فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعًا ثم لم تجدّد الوضوء، فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحيانًا وفي أودية النار أحيانًا فهل في ذلك نوم.

وقال ثابت البناني: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوًا.

وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله. وقيل: كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة. وعن أبي بكر المطوعي قال: كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه: قل هو الله أحد، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يا بني أصبت نفسًا لعلك قتلت قتيلاً؟ فيقول: يا أمي أنا أعلم بما صنعت بنفسي. وقيل لعامر بن عبد الله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر، وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها، وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يمسي، فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم: صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار.

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: صليت خلف علي

رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئًا يشبههم كانوا يصبحون شعثًا غبرًا صفرًا قد باتوا لله سجَّدًا وقيامًا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطًا في مسجد بيته يخوّف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي. وكان يقول: أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننا. كلا والله لنزاحمهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً. وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدًا ما وجد متزايدًا. وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلا ينام، وأنه مات وهو ساجد، وأنه كان يقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي. وقال القاسم بن محمد: غدوت يومًا، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليها، فغدوت يومًا إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور :٢٧] وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو.

وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء. وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل. وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين. وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره. وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهي خلقتني ولم تؤامرني، وتميتني ولا تعلمني، وخلقت معي عدوًّا وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه، ثم قلت لي: استمسك، إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني؟ إلهي في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح؟ وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة، قال جعفر بن محمد: فحدّثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب وكان له أهل وبنات وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون فيسمع من هاهنا باك ومن هاهنا داع ومن ههنا قارىء ومن هاهنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعض الحكماء: إنّ لله عبادًا أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق

والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتًا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفًا أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنًا وهم الظاهر مناديل، مبذولون لمن أرادهم تواضعًا. وهذه طريقة لا يُبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠] قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ مغشيًا عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي. ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين. ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يده فقال: ما لي وللدنيا وما للدنيا ومالي؟ عليك يا دنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك إلى محبيك فاذهبي وإياهم فاخدعي ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة، في التراب يبلون، وعلى الزمان يفنون، فناديته: يا عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه؟ وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها، ثم لها عني ساعة وقرأ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] ثم صاح صيحة أخرى أشدّ من الأولى وخرّ مغشيًا عليه فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خاطري؟ هب لي إساءتي من فضلك وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتني فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عونًا علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك؟

فإليك عني يَا مخدوع فقد عطلت عليّ لساني وميلت إليّ حديثك شعبة من قلبي وأنا أعوذ بالله من شرك، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضل عليَّ برحمته. قال: فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته.

وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليَّ فقال لي: يا هذا قم فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] اللهم بارك لي في الموت، فقلت: وفيما بعد الموت، فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقرّ، ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك واملأ قلبي من المحبة لك وأجرني من ذل التوبيخ غدًا عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي، ثم مضى وتركني. وقد أنشدوا في هذا المعنى:

نحيلُ الجسمِ مكتئبُ الفؤادِ ... تراه بقمةٍ أو بطن وادي
ينوحُ على معاصٍ فاضحات ... يكدّر ثقلها صفو الرقادِ
فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته: أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليمٌ ... كثير الصفح عن زلل العبادِ

وقيل أيضًا:

ألذ من التلذذ بالغواني ... إذا أقبلنَ في حلل حسانِ
منيب فرّ من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكانِ
ليخمل ذكره ويعيش فردًا ... ويظفر في العبادة بالأماني
تلذذه التلاوة أين ولّى ... وذكر بالفؤاد وباللسانِ
وعند الموت يأتيه بشيرٌ ... يبشر بالنجاة من الهوانِ
فيدرك ما أراد وما تمنى ... من الراحات في غرف الجنانِ

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات، ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له: قد أجهدت نفسك فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟ يعني: أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرًا وكنت بالرغبة فيه جديرًا، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها. فمهما تمرّدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمعزى، وخيِّر نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء.

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات؛ فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها عليّ فأعزّى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها

محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخرّ ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر.

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال: أنت وذاك، قال: فأتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئًا فكان لك أقوى على ما تريدين؟ قال: فبكت ثم قالت: والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دمًا حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد «وأنى لي بالبكاء» حتى غشي عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتني امرأة من المتعبدات قالت: رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت:

ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة. قالت: فقلت: أختي والله، قالت: فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت: يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك؟ قالت: فتبسمت إليَّ وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين: ألزمي الحزن قلبك، وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت.

وقال عبد الله بن الحسن: كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبًا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي، فقلت لها: لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنينًا وشهيقًا، فقلت يومًا لخادم لي: أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع، شيئًا غير أنها لا تردّ طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة: أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير.

وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليَّ وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] ويبكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الذي أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقًا فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله والصادق لا

يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب، فسكتُّ متعجبًا من قولها.

وقال أحمد بن علي: استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول: اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها: يا أمة الله ادعي لنا، فقالت: جعل الله قراكم في بيتي المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء، فحانت منه نظرة فخر مغشيًا عليه فأصابه فتق في بطنه، فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ويا ليتها إذا عصت لم تعد وقال بعض الصالحين: خرجت يومًا إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت: لا تبرحي حتى أنصرف إليك، قال: فانصرفت فلم أجدها في الموضع، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت: يا مولاي لا تعجل علي إنك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكرًا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرّة. فقالت: ساء لي ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها في كثرة البكاء قال: فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة كيف أصبحت قالت: أصبحنا أضيافًا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا؟ ثم أعرضت. قال: فقال القوم: قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه. وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح.

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له غدًا. وكانت شعوانة تقول في دعائها: إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي؛ فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها، إلهي إنك لم تزل بي برًا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه، إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله، إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني، إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخلنا على رحلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت، وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئًا من العفو ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئًا مذكورًا، ثم أقبلت على صلاتها.

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر. وإن أردت مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب «حلية الأولياء» فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين. فإن حدّثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونًا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال: وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك، أن المصيبة إذا عمت طابت، أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفًا من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها:

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك.

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدًا تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتدّ أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق

فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقًا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدًا، فأراك ترين الموت بعيدًا ويراه الله قريبًا؟ أما تعلمين أن كل ما هو آتٍ قريب وأن البعيد ما ليس بآت؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل، ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب، ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة. ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣] ويحك يا نفس إن كانت جرأتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقل حياءك، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟

هيهات هيهات! جرّبي نفسك! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فإنك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال في أمر الآخرة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات أتحسبين أنك تتركين سدى ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين أنه مماذا خلقك؛ من نطفة خلقك فقدّرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله؛ ثم إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديًا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك

لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرًا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربًا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقلّ عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أو أقل منه ما هذه أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك.

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدّة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادًا على كرم الله سبحانه وتعالى ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده، أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين: غدًا غدًا؛ فقد جاء الغد وصار يومًا فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب. والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟

ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فربَّ أكلة تمنع أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في

الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته. وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي: فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي: فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك. مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل. وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ حيث قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي».

ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ولا يغرّنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمرُك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها. يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدّة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدّة والبرودة؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرَّفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببًا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضًا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين. ويحك يا نفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] و﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلًا ولا تحويلًا.

ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودّتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا

يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفَثَ فِي روعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُه وَاعمَل ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجزِيٌّ بِهِ وَعِشْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ»(١) .

ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لايدري؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون: يبني كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا. أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يا نفس ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك، عجبًا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم :٩٨] فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها وتنزهًا عن كثرة عنائها وتوقيًا من سرعة فنائها؟ أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من النبيين والصدّيقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أيامًا قلائل. فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير. فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يا نفس ما لك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس أنّ الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود والفزع الأكبر بين

---

(١) حديث «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه». تقدم في العلم وغيره.

يديك؟ أما علمت يا نفس أنّ عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم؟

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزيين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنا متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارّة وتذكرين بالله وأنت له ناسية؟ أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك. ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسًا برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرًا وبنوا مشيدًا وأملوا بعيدًا فأصبح جمعهم بورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟.

ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عن الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك؟

فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين وأعدّي للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى

اعتبارًا وسعيك لها اضطرارًا ورفضك لها اختيارًا وطلبك للآخرة ابتدارًا، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي، واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن لم يسر. فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فإنّ من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام، فإن لم يزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلق له، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملّي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به برّ رؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجريء الذي لا أقلع أنا المتمادي الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عظمتك يا أرحم الراحمين. اقتداء بأبيك آدم عليه السلام.

فقد قال وهب بن منبه: لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك؟ قال: يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النصب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني

ويسبحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام.

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله: إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي، أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى. واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى. وقال منصور بن عمار: سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدًا يناجي ربه وهو يقول: يا رب وعزتك ما أرد بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخي علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي؛ فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟

واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا إذا قيل للمخفّين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فإلى متى أتوب وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن أستحي من ربي.

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيًا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيًا والسلام.

تم كتاب المحاسبة والمراقبة. يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.



كتاب التفكر
وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لم يقدّر لانتهاء عزته نحوًا ولا قطرًا، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرًا، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرًا صبرًا، ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك فكرًا لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدرًا، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرًا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى، وجدّدي لكل نعمة منها ذكرًا وشكرًا، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرًا وشرًّا، ونفعًا وضرًا، وعسرًا ويسرًا، وفوزًا وخسرًا، وجبرًا وكسرًا، وطيًا ونشرًا، وإيمانًا وكفرًا، وعرفانًا ونكرًا، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرًا إمرًا، وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلمًا وجورًا، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشراقه وانتقصت على أعقابها اضطرارًا وقهرًا، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخرًا، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة وذخرًا، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرًا ولطوائف المسلمين صدرًا، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فقد وردت السنة بأن: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»[(١)]، وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار.

ولا يخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه؟ فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعًا؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكر. ثم حقيقة التفكر وثمرته. ثم مجاري الفكر ومسارحه. إن شاء الله تعالى.

فضيلة التفكر:

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ [آل عمران :١٩١] وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنّ قومًا تفكروا في الله عز وجل فقال

---

(١) حديث «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». أخرجه ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جدًا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ «خير من قيام ليلة».

النبي ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدرُوا قَدْرَهُ» [(١)]، وعن النبي ﷺ: «أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: «ما لكم لا تتكلمون؟» فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل قال: «فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا، تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ وَلا تَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّ بهذا المَغْرِبِ أَرْضًا بَيْضاء، نُورُها بَيَاضُها وَبَيَاضُها مَسِيرَةُ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بها خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرفَةَ عَيْنٍ» قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال: «ما يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لا» قالوا: من ولد آدم؟ قال: «لا يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لا» [(٢)].

وعن عطاء قال: «انطلقت يومًا أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا»؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل» فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «وَيْحَكَ يا بِلالُ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] » ثم قال: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيها» [(٣)]، فقيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعقلهن.

وعن محمد بن واسع أنّ رجلًا من أهل البصرة ركب إلى أم ذرّ بعد موت أبي ذرّ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر. وعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل. وكان سفيان بن عيينة كثيرًا ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرءُ كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم، من كان منطقه ذكرًا وصمته فكرًا ونظره عبرة فإنه مثلي. وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو، وفي قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

---

(١) **حسن**: حديث ابن عباس: إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره». أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك، [**صحيح الجامع**: ٢٩٧٦].

(٢) حديث: خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: «ما لكم لا تتكلمون؟». رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام.

(٣) حديث عطاء: انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها. تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّها مِنَ العِبَادَةِ»، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النَّظَرُ فِي المُصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَالاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ» (١)، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبًا من مكة أنها قالت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصفُ لهم في الدنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدنيا عين.

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان: إنّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة، وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل، وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة. وقال عبد الله بن المبارك يومًا لسهل بن علي ورآه ساكنًا متفكرًا: أين بلغت قال: الصراط. وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل. وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

وبينا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي. وقال أبو سليمان: عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر. وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب، وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف.

وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه. ويروى أنّ الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرًا وكلامه حمدًا وإن لم يتكلم.

وقال الحسن: إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانًا وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال: من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك. وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وقال أيضًا: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم. والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم. وشاور قبل أن تقدم. وقال أيضًا: الفضائل أربع:

---

(١) **موضوع**: حديث أبي سعيد الخدري «أعطوا أعينكم حظها من العبادة». أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف، [ضعيف الجامع: ٩٤٢].

إحداها: الحكمة وقوامها الفكرة.

والثانية: العفة وقوامها في الشهوة.

والثالثة: القوّة وقوامها في الغضب.

والرابعة: العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها.

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله: أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادًا على مجّرد قوله، وهذا ما يسمى تقليدًا ولا يسمى معرفة.

والطريق الثاني: أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى.

فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرًا واعتبارًا وتذكرًا ونظرًا وتأملًا وتدبرًا. أما التدبر والتأمل والتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر: فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحدًاس؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة. فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

فكذلك الاعتبار: ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر، لا اسم: الاعتبار. وأما النظر والتفكر؛ فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرًا، فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكرًا. وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب. وفائدة التفكر: تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة. فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسدّ طريق زيادة المعارف بالموت. أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير.

وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر

العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئًا، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها.

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك عزيز جدًا، وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر. ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد. فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالإيثار علمًا حقيقيًا، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل له معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين: وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأنّ الآخرة أبقى من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر: فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم، لا غير. نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة. وذكر القلب خير من الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال. ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإنّ الفكر فيه يعرّفنا أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينًا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. وهذا ما عنيناه بالحال، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها.

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته. ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة. فهاهنا خمس درجات:

أولاها: التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب.

وثانيتها: التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفًا مخصوصًا كما يضرب الحجر على الحديد ضربًا

مخصوصًا، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه. ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره. فإذن ثمرة الفكر: العلوم والأحوال، والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التي تتصوّر أن تنقلب على القلب لا يمكن حصرها. ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطًا جمليًا فإنّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها، فإنها مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة. فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر.

بيان مجاري الفكر:

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر. ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى؛ فجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين.

وما يتعلق بالعبد: إما أن يكون نظرًا فيما هو محبوب عند الرب تعالى، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالى: إما أن يكون نظرًا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما.

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا، فنقول: العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه.

فإن تفكر في معشوقه؛ فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفًا للذته ومقويًا لمحبته.

وإن تفكر في نفسه؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها، أو في الصفات التي تقرّبه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها.

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق، وهو نقصان فيه، لأن العشق التام الكامل؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعًا لغيره. فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه. ومهما كان تفكره محصورًا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجًا عن مقتضى المحبة أصلًا.

فلنبدأ بالقسم الأوّل وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي تعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصود بهذا الكتاب، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة.

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر، كالطاعات والمعاصي. وإلى باطن، كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب، وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات والطاعات.

والمعاصي: تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام. ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور:

الأوّل: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا، فرب شيء لا يظهر كونه مكروهًا بل يدرك بدقيق النظر.

والثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهًا فما طريق الاحتراز عنه؟.

والثالث: أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فليتركه أو هو متعرّض له في الاستقبال فيحترز عنه؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في الأقسام على مائة، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها. وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع: الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات. فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه.

النوع الأول: المعاصي: ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها؟.

فينظر في اللسان ويقول:

إنه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني، إلى غير ذلك من المكاره، فيقرّر أوّلاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدّة العذاب فيها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد، أو بأن لا يجالس إلا صالحًا تقيًّا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله، وإلا فيضع حجرًا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرًا له: فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سمعه أنه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر.

فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه؛ أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من

الحلال فإن ذلك مكروه عند الله ومقوّي للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله، وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله.

ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وإن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام [1] كما ورد الخبر به.

فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء. فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء منها.

وأما النوع الثاني: وهو الطاعات. فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل؟ ثم يرجع إلى عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً:

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله؟.

وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر، فما لي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره؟ فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله؟.

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة.

وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله، وإن كنت محتاجًا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال.

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظانّ الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات.

وأما النوع الثالث: فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب. فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات: وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور

---

(١) حديث «إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثوبه درهم حرام». أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم.

وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات: فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبدًا تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق، كما كان الأوّلون يجربون به أنفسهم. وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات. وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة.

كما لو رأى في نفسه عجبًا بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي؟.

فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها: لم ترين نفسك أكبر؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقربًا إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقيًا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة؟.

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فليتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين.

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما اتصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد. وكذلك يقرّر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب. فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب.

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات. فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له. وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته. فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار. فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم: فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه. ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه، على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك، وإذا أراد حال المحبة والشوق: فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه، كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر، وإذا أراد

حال الخوف: فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدّته، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلودًا غيرها. وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها. وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا وهلم جرًا، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها. وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء. فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة. وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابًا مفردًا يستعان به على تفصيل الفكر، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسرارًا لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة. وكذلك مطالعة أخبار رسول الله فإنه قد أوتي جوامع الكلم [(١)]، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره. وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي روعي: أَحبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَعِشْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَاعْمَل مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ» [(٢)]. فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية.

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة. والمبتدىء ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدّيقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى، وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب؛ كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق.

(١) حديث: أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم. تقدم.
(٢) حديث «إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه». تقدم غير مرة.

فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب، ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصدّيقين. وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها؛ فإن استغرقت جميع عمرها، في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابًا لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفًا من الضرب وطمعًا في الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإنّ بينك وبين القلب حجابًا كثيفًا، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون. وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحًا ومساء، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقرّبة إليه سبحانه وتعالى. بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدّة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له.

فهذه عشرون خصلة؛ عشرة مذمومة، وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أنّ ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات؛ فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلًا خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر.

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة؛ كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاصٍ هم بمعزل عنها. مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في

غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصدِّيقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع، وذلك من المهلكات. وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إنّ غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخلُ عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد، حرصًا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احترامًا ويكون بلقائه أشدّ فرحًا واستبشارًا ممن يغلو في موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقًا للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه. وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام.

فمن أحس في نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل. فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جمعًا من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى. وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره. وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا؛ فإنّ هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معمورًا قبلي وكذلك يكون بعدي، ولو مت لا تنهدم أركان الإسلام فإنّ الدين مستغن عني، وأما أنا فلست مستغنيًا عن إصلاح قلبي.

وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل، فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرئاسة والعلوّ يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم. فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة. بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لا خَلاقَ لَهُمْ»[1]. و«إنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدين بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»[2]، فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى

---

(١) حديث «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم». تقدم.

(٢) حديث «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». تقدم أيضا في العلم.

يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق. قال ﷺ: «حُبُّ الجَاهِ وَالمَالِ يَنْبُتُ النفاق فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلُ» [(١)]. وقال رسول الله ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ ضَارِيانِ أرْسِلا فِي زَرِيبَةِ غَنَم بِأَكْثَرَ إفْسَادًا فيها مِن حُبِّ الجَاهِ وَالمَالِ فِي دِينِ المَرْءِ المُسْلِمِ» [(٢)].

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم.

فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي. فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعًا: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فإن من خاف شيئًا هرب منه ومن رجا شيئًا طلبه، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها. فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها، ويقال: لو كان هذا مذمومًا لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا. فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا. فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا.

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدرًا مقطوعًا، وكان ضعيفًا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه. وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوّشات، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات. فهذا القدر كافٍ في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى.

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه. وفيه مقامان: المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله، وذلك لأنّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه، إلا الصدّيقون ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه البتة، بل يختفي نهارًا وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض. وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر. وكذلك

(١) حديث «حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل». تقدم.
(٢) حديث «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم». تقدم.

النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، فالصواب إذن أن لا يتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإنّ أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو: أنّ الله تعالى مقدّس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته. بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسمًا مشخصًا له مقدار وحجم. فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء. وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدّر نفسه جميل الصورة جالسًا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حق الله، تعالى وتقدّس، حتى يفهم العظمة. بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنًا لا يقدر على الطيران؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لَجهول ظلوم كفار، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرًا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته. فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنّا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس.

ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع الموجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود. ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته، تعالى وتقدس، إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى نرى الشمس فيه ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال. فهذا سر قوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى».

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى:

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من

جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادًا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشير. ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه.

فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى: ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل :٨] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس :٣٦] وقال: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] وإلى: ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها. وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر. وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر، فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض. فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر: وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها.

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف. ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة. وجميع ذلك مجال الفكر. فلا تتحرّك ذرّة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران :١٩٠] وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم :٢٠] من أول القرآن إلى آخره. فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه. فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات :٢١] وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس :١٧-٢٢] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم :٢٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة :٣٧-٣٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات :٢٠-٢٢] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس :٧٧] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان :٢] ثم ذكر:

كيف جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظامًا، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] الآية.

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة، وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؟.

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق: الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر؛ فركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضي فيه الأعمار.

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قوامًا للبدن وعمادًا له، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق. ولما كان الإنسان محتاجًا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، مفتقرًا للتردد في حاجاته، لم يجعل عظمه عظمًا واحدًا بل عظامًا كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرًا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظمًا مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس، كما تراه، فمنها ستة تخص القحف، وأربعة عشر للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا: ثم جعل الرقبة مركبًا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوّفات مستديرات، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة على الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين

خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضًا مؤلف من ثلاثة أجزاء.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فلا نطول بذكر عدد ذلك. ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل. فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة.

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرّحون، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدًا لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحدًا لكان نقصانًا يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان بين النظرين.

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعًا وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها. فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين. وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص. وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله، وشرحه يطول، فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن، وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرّق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها مغاربها. فلا تظنن أن ذرّة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان. بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوّلاً وما صارت إليه ثانيًا، وتأمل أنه لو اجتمع الجنّ والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعًا أو بصرًا أو عقلاً أو قدرة أو علمًا أو روحًا أو يخلقوا فيها عظمًا أو عرقًا أو عصبًا أو جلدًا أو شعرًا هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقّاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها: كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أنّ تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه

بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها. وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة. وخلق لها الظهر أساسًا لبدنها والبطن حاويًا لآلات غذائها والرأس جامعًا لحواسها، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتّساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها. ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرّا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحًا لحرارة باطنه. وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقًا وترجمانًا ومعربًا عما في القلب. وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدرّ المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدّ منفذه وليتم بها حروف الكلام. وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقًا يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظلمة. ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ. وزين الوجه باللحية والحاجبين، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواص الشكل. وزين العينين بالأهداب.

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كلًّ واحد لفعل مخصوص. فسخر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد. فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها. والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها. والكلية تخدمها لجذب المائية عنها. والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تخرجه في طريق الإحليل: والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى أطراف البدن ثم خلق اليدين وطوّلهما لتمتد إلى المقاصد، وعرّض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع. ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهًا آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقًا يضع عليها ما يريد وإنْ جمعها كانت

له آلة للضرب، وإن ضمها ضمًا غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له. ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعمادًا لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه. ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتدّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل. ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتدّ إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئًا فشيئًا ولا يرى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوّرًا أو فاعلًا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه.

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي؟ ثم لما كان بدنه سخيفًا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغًا خالصًا، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليها فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقبًا ضيقًا جدًا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجًا، فإنّ الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع؟.

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السنّ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزًا عن تدبير نفسه. فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجًا حتى بلغ وتكامل، فصار مراهقًا ثم شابًا ثم كهلًا ثم شيخًا؛ إما كفورًا أو شكورًا مطيعًا أو عاصيًا مؤمنًا أو كافرًا تصديقًا لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان:١-٣] فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية.

والعجب كل العجب ممن يرى خطًا حسنًا أو نقشًا حسنًا على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟.

فهذه نبذة عن عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر في زمرة النبيين والصدّيقين مقرّبًا من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلًا.

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرّك، ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات. أما الأرض: فمن آياته أن خلق الأرض فراشًا مهادًا وسلك فيها سبلًا فجاجًا وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارّة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتادًا لها تمنعها من أن تميد. ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات :٤٧-٤٨] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك :١٥] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة :٢٢] وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ الأحياء وبطنها مرقد للأموات قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات :٢٥-٢٦].

فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات. ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقًا عذبًا صافيًا زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرابيح، يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة.

فإن قلت: إنّ اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابًا متشابهًا، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانًا مختلفة ونباتًا متشابهًا وغير متشابه، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر. فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة؟ فهذا النبات يغذي وهذا يقوّي وهذا يحيي وهذا يقتل، وهذا يبرد وهذا يسخن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا يستحيل إلى الصفراء، وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دمًا، وهذا يفرّح وهذا ينوّم وهذا يقوّي

وهذا يضعف فلم تنبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها. وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل، وبعض ذلك يستنبت ببث للبذور في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر. ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات.

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض. ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل؟ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها. ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلاّ لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر، فيستحيل ملحًا مالحًا محرقًا لا يمكن تناول مثقال منه، ليكون ذلك تطييبًا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك. وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس. ما خلق شيء منها عبثًا ولا لعبًا ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان:٣٨-٣٩].

ومن آياته: أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي. وانقسام ما يمشي: إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت، وهي من صغار الحيوانات، في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أوّلاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانيًا وثالثًا ويجعل بعد ما بينهما متناسبًا تناسبًا هندسيًا، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدي اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدي ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدي، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصدًا لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسًا في

الهواء ينتظر ذبابة تطير؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله. وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى. أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كوّنه آدمي أو علمه أو لا هادي ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوّته، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضًا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة. نعم إذا رأى حيوانًا غريبًا ولو دودًا تجدّد تعجبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسًا لخلقه وأكنانًا لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانًا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوّرها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه؟

بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته.

ومن آياته: البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي ﷺ: «الأَرْضُ فِي البَحْرِ كَالإِصْطَبْلِ فِي الأَرْضِ»[1]، فانسب إصطبلاً إلى جميع الأرض. واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله.

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب البحر ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرّك ويعلم أنها حيوان.

وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر: وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا

---

(١) حديث «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض». تقدم ولم أجده.

بركوب البحر وجمع عجائبه.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء. وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابّها ومواقيتها. ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات. وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطره الماء: وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال.

وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب: أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي؟ أتظنّ أني كوّنت نفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط. ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه.

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدّي وشفتي، فترى التقويس يظهر شيئًا فشيئًا على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشًا ولا خارجها، ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم أفما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أنّ الذي صوّر ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصوّر، كما أنّ نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع، فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرّات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه

واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

ومن آياته: الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض: لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرّك الله الهواء وجعله ريحًا هابة فإن شاء جعله نشرًا بين يدي رحمته كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعدّ للنماء، وإن شاء جعله عذابًا على العصاة من خليقته كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩-٢٠] ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدّته وقوّته مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه. فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوى في البئر. فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والغوص في الماء فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد.

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] وهذا هو الذي بينهما. وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضًا باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه. فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدّم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها. ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب، مكتوب

على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى.

كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها، ولو قيل له: ما معنى الطبع وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئًا فشيئًا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق، فيغذي كل جزء من كل ورقة، ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار، فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة، فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه. فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أوّل الأمر؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل.

ومن آياته: ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب: وهو الأمر كله، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحققًا.

فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر. ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ [الطارق: ١] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] وكقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١-٢] وكقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥-١٦] وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦] فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون، وما أقسم الله بها، فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وأثنى على المفكرين فيه فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ» (١) أي تجاوزها من غير فكر. وذم

---

(١) حديث «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» أي قوله تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم.

المعرضين عنها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء :٣٢] فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالى محفوظًا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ :١٢] وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات :٢٧-٢٨] فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت. ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام :٧٥] لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] .

فأجِل أيها العاقل فكرَك في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي. وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض، ثم السموات السبع بكواكبها، ثم الكرسي ثم العرش، ثم الملائكة الذي هم حمَلة العرش وخزان السموات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما.

فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع؟.

فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام، من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في مسارها، بل تجري جميعًا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي. ثم انظر كيفية أشكالها: فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء.
ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسًا والنوم سباتًا والنهار معاشًا، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص.

وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان. وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر، واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه ثم في وضعه من السماء، وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه. وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها [(١)] ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثماني مرات وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها؛ إذ للبعد صارت ترى صغارًا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات :٢٨] .

وفي الأخبار: أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام [(٢)] فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافًا فانظر إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها. ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب، لأن الزمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنا غافل عنه. وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبيﷺ : «هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ؟» فقال: لا . . . نعم، فقال: «كَيْفَ تَقُولُ لا . . نَعَمْ» فقال: من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام [(٣)] فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها. فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من

---

(١) - الحديث الدال على عظم الشمس. رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر: رأى رسول اللهﷺ الشمس حين غربت فقال «في نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض» وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة «وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته».

(٢) ضعيف: حديث «بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام». أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب، قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نضرة عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نضرة سماع من أبي ذر، [المشكاة: ٥٧٣٥/ ٣٨].

(٣) حديث: أنه قال لجبريل: «هل زالت الشمس؟». لم أجد له أصلا.

فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقًا بالصبغ مموّهًا بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدًا تنظر إلى هذا البيت وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضًا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك؟ ليس لك همّ إلا شهوتك أو حشمتك. وغاية شهوتك أن تملأ بطنك، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات.

وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يريد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك. وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها. فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها. وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضًا عن سكانه، فأنت أيضًا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سماواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك. نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه.

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخِر له، ولو استقصينا أعمارًا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ. وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرّبون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علمًا بل هو إلى أن يسمى دهشًا وحيرة قصورًا وعجزًا أقرب. فسبحان من عرّف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته،

وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم. وهذا كما أنك تعظم عالمًا بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرًا وتعظيمًا واحترامًا، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك. فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدًا، وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإنا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته. وما من ذرّة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصرًا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته.

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه



كتاب ذكر الموت وما بعده
وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرّغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزًّا، واتخذوا من دونه حجابًا وحرزًا، وانظر: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم :٩٨] فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصًا للأتقياء وموعدًا في حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه وبطن الأرض مستقرّه والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، وقد قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»[1]، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه. ونحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بدّ للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار، ليكون ذلك مستحثًا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

الشطر الأوّل في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول: في فضل ذكر الموت والترغيب فيه.

الباب الثاني: في ذكر طول الأمل وقصره.

الباب الثالث: في سكرات الموت وشدّته وما يستحب من الأحوال عند الموت.

---

(١) حديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت». تقدم غير مرة.

الباب الرابع: في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين.

الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور.

الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور.

الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام.

الباب الأول: في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره. وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة :٨] ثم الناس: إما منهمك، وإما تائب مبتدئ، أو عارف منته. أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدًا. وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقاءَهِ» (١)، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء قصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارهًا للقائه وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين. كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أنّ الفقر أحب إليَّ من الغنى والسقم أحب إليَّ من الصحة والموت أحب إلي من العيش فسهل علي الموت حتى ألقاك. فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه. فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك أيضًا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته. وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان:

قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» (٢)، معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع

---

(١) **صحيح**: حديث «من كره لقاء الله كره الله لقاءه». متفق عليه من حديث أبي هريرة، .

(٢) حديث «أكثروا من ذكر هاذم اللذات». أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى. وقالﷺ: «لَوْ تَعْلَمُ البَهَائِمُ مِنَ المَوْتِ ما يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ ما أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِينًا»(١)، وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ المَوْتَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً»(٢). وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أنّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا. وقالﷺ: «تُحْفَةُ المُؤْمِنِ المَوْتُ»(٣)، وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعه شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق تحفة في حقه. وقالﷺ: «المَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»(٤) وأراد بهذا: المسلم حقًا المؤمن صدقًا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغائر، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض، قال عطاء الخراساني: مرَّ رسول اللهﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال: «شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَّاتِ» قالوا: وما مكدّر اللذات؟ قال: «المَوْتُ»(٥).

وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول اللهﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا»(٦). وقالﷺ: «كَفَى بِالمَوْتِ مُفَرِّقًا»(٧)، وقال عليه السلام: «كفى بالموت واعظًا»(٨)، وخرج رسول اللهﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدّثون ويضحكون، فقال: «اذْكُرُوا المَوْتَ أَما وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»(٩)، وذكر عند رسول اللهﷺ

---

(١) حديث «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم.

(٢) حديث: قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال «نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة». تقدم.

(٣) **ضعيف**: حديث «تحفة المؤمن الموت». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلا بسند حسن، [ضعيف الجامع: ٢٤٠٤].

(٤) **موضوع**: حديث «الموت كفارة لكل مسلم». أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء، [ضعيف الجامع: ٥٩٥٠].

(٥) **ضعيف**: حديث عطاء الخراساني: مر النبيﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلا ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح، [ضعيف الجامع: ٣٤٠٩].

(٦) **ضعيف جدًا**: حديث أنس «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جدا، [ضعيف الجامع: ١١١٠].

(٧) **ضعيف**: حديث «كفى بالموت مفرقا». أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف، ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الحبلي مرسلا، [ضعيف الجامع: ٤١٩١].

(٨) **ضعيف جدًا**: حديث «كفى بالموت واعظا». أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد، [الضعيفة: ٥٠٢].

(٩) حديث: خرج رسول اللهﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: «اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟» قال: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال: «فإنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ» (١)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدادًا لَهُ أُولَئِكَ هُم الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ» (٢).

وأما الآثار: فقد قال الحسن رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحًا. وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيرًا له من الموت.

وكان يقول: لا تشعروا بي أحدًا وسلوني إلى ربي سلاً. وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده. وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه. وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأنّ بين أيديهم جنازة. وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل. وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها. وقال مطرف: رأيت فيما يرى النائم كأنّ قائلاً يقول في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين. وقال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخر وذكر الموت. وقالت صفية رضي الله تعالى عنها: إنَّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دمًا.

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه. وقال الحسن: ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذرًا وعليه حزينًا. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني. فقال: لست أوّل خليفة تموت؟ قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك. وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرًا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد. وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه. وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك. وقال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون، أتحبين الموت؟ قالت: لا، قلت: لم؟ قالت: لو عصيت آدميًا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته.

---

(١) **ضعيف جدًا**: حديث: ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه، [ضعيف الترغيب: ١٩٤٨].

(٢) **منكر**: حديث ابن عمر: أتيت النبي ﷺ - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»، أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد. [ضعيف الترغيب: ١٩٤٦].

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب:

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه. فالطريق فيه، أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت في قلبه. فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه. وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم.

وكيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلًا وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع. وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله. وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه. وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه. وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه، إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار؛ فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال، أنه لا بد له من مفارقته. نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديدًا حتى ارتفع صوته.

الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل:

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر: «إذا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسكَ بِالمَسَاءِ وَإذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ وَمِنْ صحَّتِكَ لِسَقَمِكَ فَإِنَّكَ يا عَبْدَ اللَّهِ لا تَدْرِي ما

اسْمُكَ غَدًا» (١) . وروى علي كرّم الله وجهه أنه ﷺ قال: «إنَّ أَشَدَّ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَإِنَّهُ الحُبُّ لِلدُّنْيَا» ثم قال: «ألاَ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَإذا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الإيمَانَ، ألاَ إنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءً وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءً فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، ألا إنَّ الدُّنْيَا قد ارتحلت مُوَلِّيَةً ألاَ إنَّ الآخِرَةُ قَد ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً. ألا وَإنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ ألاَ وَإنَّكُمْ تُوشكُونَ فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ» (٢) ، وقالت أم المنذر: اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحُونَ مِنَ اللَّهِ؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تَجْمَعُونَ ما لا تَأْكُلُونَ وَتَأْمَلُونَ ما لا تُدْرِكُونَ وَتَبْنُونَ ما لا تَسْكنُونَ» (٣) . وقال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تَعْجَبُونَ مِن أُسَامَةَ المُشْتَرِي إلى شَهْرٍ، إنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الأَمَلِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما طَرَفَتْ عَيْنَايَ إلاّ ظَنَنْتُ أنَّ شَفْرَيَّ لا يُلْتَقيانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلا رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أنِّي وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ، وَلا لَقَمْتُ لُقْمَةً إلاّ ظَنَنْتُ أنّي لا أُسِيغُها حَتَّى أَغَصَّ بِهَا مِنَ المَوْتِ» ثم قال: «يا بَنِي آدَمَ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ المَوْتَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:١٣٤] » (٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يُدْرِينِي لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ» (٥)، وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودًا بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «هل تدرون ما هذا» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإِنْسَانُ وَهذا الأَجَلُ وَذاكَ الأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمَلِ» (٦)، وقال عليه السلام: «مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إنْ أَخْطَأَتْهُ المَنَايا وَقَعَ فِي الهَرَمِ» (٧)، قال ابن مسعود: هذا المرء

(١) **صحيح**: حديث: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء». أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث «كن في الدنيا كأنك غريب»، .

(٢) **ضعيف جدًا**: حديث علي «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل». الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف، [الضعيفة: ٢١٧٧].

(٣) حديث أم المنذر «أيها الناس أما تستحون من الله». أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم.

(٤) **ضعيف**: حديث أبي سعيد: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف، [الضعيفة: ٤٩٧٧].

(٥) **صحيح**: حديث ابن عباس: كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول «ما يدريني لعلي لا أبلغه». أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبزار بسند ضعيف، [الصحيحة: ٢٦٢٩].

(٦) حديث: أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال «هل تدرون ما هذا». أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا.

(٧) **صحيح**: حديث: «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع في الهرم». أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن، [صحيح الجامع: ٥٨٢٥].

وهذه الحتوف حوله شوارع إليه، والهرم وراء الحتوف، والأمل وراء الهرم، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل. قال عبد الله خط لنا رسول الله ﷺ خطًا مربعًا، وخط وسطه خطًا، وخط خطوطًا إلى جنب الخط، وخط خطًا خارجًا وقال: «أَتَدْرُونَ مَا هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإِنْسَانُ لِلْخَط الَّذِي فِي الوَسَطِ وَهذا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهذِهِ الأَعْرَاضُ للخطوط التي حوله تَنْهَشُهُ إِنْ أَخْطَأَه هذا نهشه هذا، وَذاكَ الأَمَلُ يَعْني الخط الخارج» [١]، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ: الحِرْصَ وَالأَمَلُ» [٢].

وفي رواية: «وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر». وقال رسول الله ﷺ: «نَجَا أَوَّلُ هذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيُهْلِكُ آخِرُ هذِهِ الأُمَّةِ بِالبُخْلِ وَالأَمَلِ» [٣]، وقيل: بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل، فقال فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «قَصِّرُوا مِنَ الأَمَلِ وَثَبِّتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ» [٤]، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيا تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ المَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلِ» [٥].

الآثار: قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت عليّ ذهاب عقلي؟ ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق. وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري: بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه

---

(١) **صحيح**: حديث ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا». رواه البخاري، .

(٢) **صحيح**: حديث أنس: يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان: الحرص والأمل. وفي رواية «ويشب معه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر» ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح، .

(٣) **حسن لغيره**: حديث «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، [**صحيح الترغيب**: ٣٣٤٠].

(٤) حديث الحسن «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا.

(٥) حديث: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي ﷺ وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري مَنْ حوشب.

أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، فراق الأحبة، محمد وحزبه، وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار. وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل. وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة. وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل، فرجع إلى الطعام والشراب، وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال الأمر أعجل من ذلك. وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم. وقال بعضهم: أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه. وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهرًا لرأيتني قد أتيت عظيمًا، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار؟.

وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني، وفي طرف كسائه شيء مصرور، فقال له أستاذه: أيش هذا معك؟ فقال: لوزات دفعها إليَّ أخ لي وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال: يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبدًا، قال: فأغلق في وجهي الباب ودخل. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن لكل سفر زادًا لا محالة فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كَمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، وإنما تقرّ عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يدواي كلمًا إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما.

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد: فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام. وكتب آخر إلى أخ له: إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل، والسلام. وقال الحسن: كان آدم عليه السلام قبل أن يخطىء أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره. وقال عبد الله بن سميط: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتًا قط من غير سقم، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدّة، إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدّم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترؤون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط، ثم يقال رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت، رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت. وقال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور، فطلب من يقرؤه، فأتى

بوهب بن منبه فإذا فيه: ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غدًا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاء شديدًا.

وقال بعضهم: رأيت كتابًا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد، فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، فكم من مفتضح ومستور، وكم من هالك وناج، وكم من معذب ومرحوم، فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ففي هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين، أعاننا الله وإياكم على هذا الحظر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، فإننا نحن وبه وله والسلام.

وخطب عمر بن عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقي غدًا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجنته التى عرضها السموات والأرض، وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف واتقى وباع قليلاً بكثير وفانيًا بباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون. ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب، وايم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات.

وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء. وقال الثوري: رأيت شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء. وقال عبد الله بن ثعلبة: تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار. وقال أبو محمد بن علي الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريبًا منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب. واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون وروي أن معروفًا الكرخي رحمه الله

تعالى أقام الصلاة، قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها الظعن عنها، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى، إنما الدنيا كفئ ظلال قلص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلاً وتحزن طويلاً. وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته: أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا.

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه:

اعلم أنّ طول الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والآخر: حب الدنيا.

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه. والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخًا. فإذا صار شيخًا قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الذي يشمت بك فلا يزال يسوّف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون: واحزناه من سوف. والمسوف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدًا، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخًا، ويظنّ أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها إلا من اطرحها.

فما قضى أحد منها لبانته ... وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قولهﷺ: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه»[1].

---

(١) حديث «أحبب من أحببت فإنك مفارقه». تقدم غير مرة.

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد. وإنما قلوا لأنّ الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب. وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيدًا فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا. ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبدًا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبدًا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته، لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه، فهو الأوّل وهو الآخر. وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللِّبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت أنّ سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه.

أما الجهل: فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأوّلين والآخرين علاجه؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير. فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغص، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده، ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا. أما من كان مستعدًّا فقد فاز فوزًا عظيمًا، وأما من كان مغرورًا بطول الأمل فقد خسر خسرانًا مبينًا. فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة، وكيف تتفتت عظامها، وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلاً أو اليسرى؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر. فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له.

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

اعلم أنّ الناس في ذلك يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدًا قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة:٩٦] ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه

وهو الذي يحب الدنيا حبًا شديدًا قال رسول الله ﷺ: «الشَّيْخُ شَابٌ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنْ التَفَّتَ تَرْقُوَتَاهُ مِنَ الكِبَرِ إلاّ الَّذِينَ اتَّقوا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (١)، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدّر لنفسه وجودًا في عام قابل، ولكن هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف. فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة. ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف، ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعدّ إلا لنهاره وأما للغد فلا. قال عيسى عليه السلام: لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم. ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ: «يا عَبْدَ اللَّهِ إذا أَصْبَحْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ، وَإذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَحدثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ». ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضًا ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول: «لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ»، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلاً ويلتفت يمينًا وشمالاً فقال له قائل: ما هذا؟ قال: أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني.

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله تعالى، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيدل ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح؛ وهكذا إذا أصبح. ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتنامًا لكل نفس أمهلت فيه.

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدًا. فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم

(١) **صحيح**: حديث «الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم». لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال».

(٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف.

وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدًا يرى لنفسه متسعًا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله ﷺ: «ما يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إلاّ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقَيِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَّال، فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمرُّ» (١)، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغْتَنِم خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ عَمَلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ» (٢) وقال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ» (٣). أي إنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما، وقال ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ أَلا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ» (٤)، وقال رسول الله ﷺ: «جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ» (٥)، وكان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع: «أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة» (٦) وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا النَّذِيرُ، وَالمَوْتُ المُغِيرُ، وَالسَّاعَةُ المَوْعِدُ» (٧)، وقال ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «ما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إلاّ كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هذا فِي مِثْلِ ما مَضَى مِنْهُ» (٨) وقال ﷺ: «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذلِكَ الخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ» (٩) وقال جابر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول: صَبَّحْتُكُمْ وَمَسَّيْتُكُمْ بُعِثْتَ أنا

---

(١) **ضعيف**: حديث «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنًى مُطْغِيًا، أو فَقْراً مُنْسِيًا». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: «هل ينتظرون إلا غناء... الحديث» وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم، [ضعيف الترمذي].

(٢) **صحيح**: حديث ابن عباس «اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك». أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا، [صحيح الجامع: ١٠٧٧].

(٣) **صحيح**: حديث «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». أخرجه البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(٤) **صحيح**: حديث «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن.

(٥) **حسن**: حديث «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه». أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب.

(٦) **ضعيف**: حديث «كان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السليمي مرسلا، [ضعيف الجامع: ٨٥].

(٧) حديث أبي هريرة «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين.

(٨) **ضعيف**: حديث ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقى من يومنا هذا في مثل ما مضى منه». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه، [ضعيف الترغيب: ١٦٤١].

(٩) **ضعيف**: حديث «مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح، [ضعيف الجامع: ٥٢٥١].

وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وقرن بين أصبعيه» (١) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ» فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال: «نَعَمْ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ» (٢) وقال السدي: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] أي أيكم أكثر للموت ذكرًا وأحسن له استعدادًا وأشد منه خوفًا وحذرًا. وقال حذيفة: ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس الرحيل الرحيل. وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] في الموت.

وقال سحيم مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال: أرحني بحاجتك فإني أبادر، قلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت رحمك الله، قال: فقمت عنه وقام إلى صلاته. ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال: دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة. وقال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقل من ذلك قال: فلم يزل على ذلك حتى مات. وكان يقول لامرأته: شدي رحلك فليس على جهنم معبر. وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قومًا صيح بهم فانتبهوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، واستعدّوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جدّ بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبًا يجدّ به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدّم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له، والشيطان موكل به يمينه التوبة ليسوّفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائمًا فعّال لما يشاء.

---

(١) **صحيح**: حديث جابر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه». أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له.

(٢) حديث ابن مسعود: تلا رسول الله ﷺ ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال «إن النور إذا دخل الصدر انفسح». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد:١٤] قال بالشهوات واللذات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ قال بالتوبة ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ قال: شككتم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: الموت. ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤] قال: الشيطان: وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وقال أبو عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبًا بكم وأهلاً حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن، فإن من رأى محمدًا ﷺ فقد رآه غاديًا ورائحًا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون، أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معًا، رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا فأكل كسرة ولبس خلقًا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك [١].

وقال عاصم الأحول: قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب هاهنا وهاهنا فينقطع عنك النهار في لا شيء، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئًا قط أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثة لذنب قديم.

الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور. واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه. فأما القياس الذي يشهد له: فهو أن كلّ عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده!

---

(١) حديث أبي عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحبا بكم. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرًا وباطنًا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

وأما الجراحة: فإنما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربه وألمه، حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوّة وضعَّف كل جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة.

أما العقل: فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها. ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارًا وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما، وتخضر أنامله.

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجًا فتبرد أوّلاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة، وقال رسول الله ﷺ: «تُقْبَلُ تَوْبَةُ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» [1]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء :١٨] قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ المَوْتِ» [2] والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك

---

(١) **حسن:** حديث «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر، [صحيح الجامع: ١٩٠٣].

(٢) حديث كان يقول «اللهم هون على محمد سكرات الموت». تقدم.

بنور النبوّة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن عليّ هذه السكرة. يعني الموت. فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت.

وروي أن نفرًا من بني إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتًا تسألونه؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي. وقالت عائشة رضي الله عنها: لا أغبط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ. وروي أنه عليه السلام كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ العَصَبِ وَالقَصَبِ وَالأَنَامِلِ .اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى المَوْتِ وَهَوِّنْهُ عَلَيَّ»(١). وعن الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «هُوَ قَدْرَ ثَلاثِمِائَةِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ»(٢)، وسئل ﷺ عن الموت وشدّته فقال: «إِنَّ أَهْوَنَ المَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَهَلْ تَخْرُجُ الحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إلا وَمَعَهَا صُوفٌ»(٣)، ودخل ﷺ على مريض ثم قال: «إِنِّي أَعْلَمُ ما يَلْقَى، ما مِنْهُ عِرْقٌ إلاَّ وَيَأْلَمُ لِلْمَوْتِ عَلَى حِدَتِهِ»(٤)، وكان علي كرّم الله وجهه يحض على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من موت على فراش. وقال الأوزاعي: بلغنا أنّ الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره. وقال شدّاد بن أوس: الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدّ من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار. وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيرًا من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض وكأنّ نفسي يخرج من ثقب إبرة.

---

(١) حديث كان يقول «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل .اللهم فأعني على الموت وهونه علي». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي.

(٢) حديث الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف». أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات.

(٣) ضعيف: حديث سئل ﷺ عن الموت وشدته فقال: «إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا، [ضعيف الجامع: ١٨٤٢].

(٤) حديث: دخل ﷺ على مريض فقال: «إني أعلم ما يلقى ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات.

وقال ﷺ: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر» (١)، وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ المَيِّتِ وُضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لأَنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ المَوْتَ وَلا يَقَعُ المَوْتُ بِشَيْءٍ إِلاَّ مَاتَ» (٢)، ويروى: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ أَلَمِ المَوْتِ وُضِعَتْ عَلَى جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَذَابَتْ» (٣)، وروي أنّ إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب. فقال: أما إنا قد هوّنا عليك. وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير، وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب. وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ المَوْتِ» (٤)، وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول: «لا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ اليَوْمِ» (٥). وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إنّ الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيُعَالِجُ كُرَبَ المَوْتِ وَسَكَرَاتِ المَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلامُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» (٦).

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه. فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث:

(الأولى): شدة النزع كما ذكرناه.

(الداهية الثانية): مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته. فقد روي عن إبراهيم

---

(١) **صحيح**: حديث «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر». أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال «وأخذة أسف» ولأبي داود من حديث خالد السلمي «موت الفجأة أخذة أسف»، [صحيح الجامع: ٦٦٣١].

(٢) حديث مكحول «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه «لو أن ألم شعرة» وزاد «وإن في يوم القيامة لتسعين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف» وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد.

(٣) حديث «لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت». لم أجد له أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فإنه قال: ويروى.

(٤) **صحيح**: حديث: إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول «اللهم هون علي سكرات الموت». متفق عليه من حديث عائشة، .

(٥) **صحيح**: حديث: إن فاطمة قالت واكرباه لكربك يا أبتاه! وهو يقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم». أخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: واكرب أبتاه، وفي رواية لابن خزيمة: واكرباه، .

(٦) حديث «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول: عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة». رويناه في الأربعين لأبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك.

الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: بلى، قال: فأعرض عني فأعرض عنه. ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان؛ فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ رَجُلاً غَيُورًا وَكانَ إذا خَرَجَ أَغْلَقَ الأَبْوَابَ، فَأَغْلَقَ ذاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتِ امْرَأَتُهُ فإذا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ: مَنْ أَدْخَلَ هذا الرَّجُلَ لَئِنْ جاءَ دَاوُدُ لَيَلْقَيَنَّ مِنْهُ عَنَاءً؟ فَجاءَ دَاوُدُ فَرَآهُ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنا الَّذِي لا أَهَابُ المُلُوكَ وَلاَ يُمْنَعُ مِنِّي الحِجَابُ، فَقَالَ: فَأَنْتَ وَاللَّهِ إِذَنْ مَلَكُ المَوْتِ وَزَمَّلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلامُ مَكَانَهُ» [(١)].

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرَّ بجمجمة فضربها برجله فقال: تكلمي بإذن الله فقالت: يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا وبينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي، إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون، فقد حكى الأنبياء مجرّد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال؟.

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيورًا وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها فقال: أنا ربها، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عني، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين. قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعًا قالا له: جزاك الله عنا خيرًا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجرًا قالا له: لا جزاك الله عنا خيرًا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرًا. فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدًا.

(الداهية الثالثة): مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة؛ فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة

---

(١) حديث أبي هريرة «أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا». أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه.

ملك الموت بأحد البشريين: إما أبشر يا عدوّ الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، وقد قال النبي ﷺ: «لَنْ يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ» (١)، وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فقالوا: كلنا نكره الموت قال: «لَيْسَ ذَاكَ بِذَاكَ إِنَّ المُؤْمِنَ إذا فُرِجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٢). وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود. وهو لما به من آخر الليل: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحمراء فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ودخل مروان على أبي هريرة، فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد ثم بكى أبو هريرة وقال: والله ما أبكي حزنًا على الدنيا ولا جزعًا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار.

وروي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ إذا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ: يا مَلَكَ المَوْتِ اذْهَبْ إِلَى فُلانٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لأرِيحَهُ، حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ فَيَنْزِلَ مَلَكُ المَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ المَلائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبانُ الرَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ، وَتَقُومُ المَلائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ، مَعَهُمْ الرَّيْحَانُ، فإذا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إبليس وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ. قَالَ: فَيَقُول لَهُ جُنُودُهُ: ما لَكَ يا سَيِّدَنا فيقولُ: أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هذا العَبْدُ مِنَ الكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هذا؟ قالوا: قَدْ جَهِدْنا بِهِ فَكَانَ مَعْصُومًا» (٣). وقال الحسن: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه. وقيل لجابر ابن زيد. عند الموت.: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن، فلما دخل عليه الحسن قيل له: هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال: يا إخوتاه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة. وقال محمد بن واسع - عند الموت-: يا إخوتاه عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله. وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدًا ولا يبعث لثواب ولا عقاب. فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت. وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع. ولكننا لا نطول بذكره وإعادته.

---

(١) **صحيح**: حديث «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا «لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار» وفي رواية «حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار» وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته... الحديث».

(٢) حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) حديث «إن الله إذا رضي عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح «إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان... الحديث»، [صحيح الجامع: ٤٩٠].

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت:

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقًا بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

(أما الصورة): فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ارْقُبُوا المَيْتَ عِنْدَ ثَلاثٍ: إذا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ، وَإذا غَطَّ غَطِيطَ المَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنُهُ وَازْبَدتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ» (١).

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة): فهي علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لا إِلهَ إلا اللَّهُ» (٢) وفي رواية حذيفة «فَإِنَّهَا تَهْدِمُ ما قَبْلَها مِنَ الخَطَايَا» (٣) وقال عثمان: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أن لا إلهَ إلاّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّة» (٤)، وقال عبيد الله: «وَهُوَ يَشْهَدُ» وقال عثمان: إذا احتضر الميت فلقنوه: «لا إله إلا الله» فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة. وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله. وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَضَرَ مَلَكُ المَوْتِ رَجُلاً يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَفَكَّ لَحْيَيْهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لاصِقًا بِحَنَكِهِ يقولُ: لا إلهَ إلاّ اللَّهُ، فَغُفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الإِخْلاصِ» (٥). وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته لكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة. وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب مشغوفًا بالدنيا ملتفتًا إليها متأسفًا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

(وأما حسن الظنّ): فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ بالله. دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ قال: أغرقتني ذنوب لي وأشرفت علي هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بي ما شَاءَ» (٦) ودخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي،

---

(١) حديث «ارقبوا الميت عند ثلاث». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان، ولا يصح.
(٢) حديث «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله». تقدم.
(٣) حديث حذيفة: فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا. تقدم.
(٤) حديث: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة. تقدم.
(٥) منكر: حديث أبي هريرة: حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا [الضعيفة: ٢٥٩٠]. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمي في رواية الطبراني إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف.
(٦) حديث: دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟. أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا.

فقال النبي ﷺ: «ما اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا المَوْطِنِ إلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ»(١).

وقال ثابت البناني: كان شاب به حدّة وكان له أم تعظه كثيرًا وتقول له: يا بني إن لك يومًا فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له: يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يومًا، فقال: يا أمه إن لي ربًّا كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه. قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بربه. وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق فاحتضر، فقالت له أمه: يا بني توصي بشيء؟ قال: نعم، خاتمي لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني، فلما دفن رؤى في المنام فقال: أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي. ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت، فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه. وقال أبو المعتمر بن سليمان: قال أبي: لما حضرته الوفاة: يا معتمر حدّثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظنّ به. وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

بيان الحسرة عند لقاء الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها:

قال أشعث بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان: عين في وجهه وعين في قفاه فقال: يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع؟ قال: أدعوا الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين، وقال: قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام ما لي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء. وقال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبرًا. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرًا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرًا عظيمًا قال: إن لي إليك حاجة قال: اصبر حتى أنزل قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارّه وقال: أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدًا فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة. ثم مضى فلقي عبدًا مؤمنًا في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارّه وقال: أنا ملك الموت فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليَّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال: فاختر

(١) حديث: دخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك؟». تقدم.

علي أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال نعم إني أمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي؟ فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرًا عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له: ما يبكيك؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدنك قال: فالمهلة حتى أفرّقه قال: هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك؟ فقبض روحه.

وروي أنّ رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفًا من المال إلا اتخذه، وابتنى قصرًا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسًا من غلمانه، ثم جمع أهله وصنع لهم طعامًا وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال: يا نفس أنعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعًا أفزعه وهو على فراشه، فوثب إليه الغلمان وقالوا: ما شأنك؟ فقال: ادعوا إليّ مولاكم فقالوا: وإلى مثلك يخرج مولانا؟ قال: نعم فأخبروه بذلك، فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشدّ من الأولى، فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمعوه ألقي عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع، فقال: قولوا له قولاً لينًا وقولوا هل تأخذ به أحدًا؟ فدخل عليه وقال: اصنع في مالك ما أنت صانع، فإني لست بخارج منها حتى أخرج روحك، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه: لعنك الله من مال أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي، فأنطق الله المال فقال: لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بي، وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك؟ خلقت يا ابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط. وقال وهب بن منبه: قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة: لمن كنت أشدّ رحمة ممن قبضت روحه؟ قال: أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولودًا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد له بها. فقالت الملائكة: الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت: سبحان اللطيف لما يشاء! قال عطاء بن يسار: إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإنّ العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإنّ اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري.

وقال الحسن: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقًا ولا أفنيت له عمرًا ولا انتقصت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحدًا. قال الحسن: فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم. وقال يزيد الرقاشي بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد

خلا ببعض أهله، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعًا مغضبًا فقال له: من أنت ومن أدخلك علي داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد. قال: فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبًا على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجديًا متذللاً له فقال له: أنت إذن ملك الموت قال: أنا هو، قال: فهل أنت ممهلني حتى أحدث عهدًا؟ قال هيهات انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهدته، قال: فإني لم أقدم عملاً صالحًا ولم أمهد بيتًا حسنًا، قال: فإلى لظى نزاعة للشوي، ثم قبض روحه فسقط ميتًا بين أهله، فمن بين صارخ وباك.

قال يزيد الرقاشي: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر. وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني قال: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن آتاه ثانيًا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم كنت أتعجب منه لأني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك.

الباب الرابع في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده وفاة رسول الله ﷺ

اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيًا وميتًا وفعلاً وقولاً وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان، وخيرات حسان، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه، وترادف قلقه وارتفع حنينه، وتغير لونه وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعًا عنه مقدورًا؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيرًا؟ وهل سامحه إذا كان للحق نصيرًا وللخلق بشيرًا ونذيرًا؟ هيهات بل امتثل ما كان به مأمورًا واتبع ما وجده في اللوح مسطورًا. فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أوّل من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين، لعلنا نظن أننا مخلدون، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون، هيهات هيهات بل نتيقن أنا جميعًا على النار واردون، ثم لا ينجو منها إلا المتقون، فنحن للورود مستيقنون، وللصدور عنها متوهمون، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين.

وقال الله رب العالمين: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم :٧١-٧٢] فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين. ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتدّ أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى، قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال: «مَرْحَبًا بِكُمْ حَيَّاكُم اللَّهُ، آواكم الله نَصَرَكُم اللَّهُ، وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه، وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى، فأقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله»[١].

وروي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «مَنْ لأُمَّتِي بَعْدِي» ؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجًا من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال: «الآنَ قَرَّتْ عيْنِي»[٢]، وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أُحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال: «أَمَّا بَعْدُ: يا مَعْشَر المُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الأَنْصَارُ لا تَزِيدُ عَلَى هيئتها التِي هِيَ عَلَيْها اليَوْمَ وإِنَّ الأَنْصَارَ عيْبَتِي الَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْها فَأَكْرِموا كَرِيمَهُمْ يَعْنِي مُحْسِنَهُمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» ثم قال: «إِنَّ عَبْدًا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ ما عِنْدَ اللَّهِ فَاخْتَارَ ما عِنْدَ اللَّهِ» فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه، فقال النبي ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ يا أبا بَكْرٍ سُدُّوا هذه الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي المَسْجِدِ إلاّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ فَإِنِّي لا أَعْلَمُ أَمْرًا أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْر»[٣]، قالت عائشة رضي الله عنها: فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل علي أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له: آخذه لك، فأومأ برأسه أن: نعم،

---

(١) حديث ابن مسعود: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق». رواه البزار وقال: هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة، قال: وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة، قال: ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة. قلت: وقد روى من غير ما وجه. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود. ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط.

(٢) حديث: أنه ﷺ قال لجبريل عند موته «من لأمتي بعدي». أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه «من لأمتي المصطفاة من بعدي» قال: أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال «الآن طابت نفسي» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث عائشة: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار. أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة.

فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتدّ عليه فقلت: أُلينه لك؟ فأومأ برأسه أن: نعم، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول «لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ إنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ» ثم نصب يده يقول: «الرَّفِيقَ الأَعْلَى... الرَّفِيقَ الأَعْلَى» فقلت: إذن والله لا يختارنا [١].

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أنّ النبي ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله، فمدّ يده وقال «ها» فتناولوه، فقال: «ما تقولون» قالوا: نقول: نخشى أن تموت، وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئًا على علي والفضل، والعباس أمامه، ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ المَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُم لِلْمَوْتِ، وَما تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ أَلَمْ أُنْعَ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ؟ هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ؟ ألا إنِّي لاحِقٌ بربِّي وإِنَّكُمْ لاحِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أوصيكُمْ بالمَهَاجِرِينَ الأَوَّلين خَيْرًا وَأُوصِي المُهَاجِرِينَ فِيما بَيْنَهُمْ فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ١-٣] إلى آخرها وإنَّ الأُمُورَ تَجْرِي بإِذْنِ اللَّهِ فَلا يَحْمِلَنَّكُم اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ ومَنْ غَالَبَ الله غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللَّهَ خَدَعَهُ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] وَأُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُم الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمْ الثِّمَارَ أَلَمْ يُوَسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الخَصَاصَةُ؟ ألا فَمَنْ وَلِيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَن مُسِيئِهِمْ، ألا وَلا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ ألا وَإِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لاحِقُونَ بِي، ألا وَإِنَّ مَوْعِدَكُم الحَوْضُ، حَوْضِي أَعْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّامِ وَصَنْعَاءِ اليَمَنِ، يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الكَوْثَرِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ وبَطْحَاؤُهُ المِسْكُ، مَنْ حُرِمَهُ فِي المَوْقِفِ غَدًا حُرِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ، ألا فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَدًا فَلْيَكْفُفْ لِسَانَه وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي، فقال العباس: يا نبي الله أوص بقريش فقال: «إِنَّمَا أوصِي بِهذا الأَمْرِ قُرَيْشًا وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَفَاجِرُهمْ لِفَاجِرِهِمْ، فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشٍ بِالنَّاسِ خَيْرًا، يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبَدِّلُ القِسَمِ، فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَإِذَا فَجَرَ النَّاسُ عَقُّوهُمْ قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]» [٢].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «سل يا أبا بكر» فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قَدْ دَنَا الأَجَلُ وَتَدَلَّى» فقال: ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري

---

(١) **صحيح**: حديث عائشة: قبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت. متفق عليه.

(٢) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أن النبي ﷺ يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم. فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى.

عن منقلبنا، فقال: «إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَالفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَالكَأْسِ الأَوْفَى والرَّفِيقِ الأَعْلَى وَالحَظِّ وَالعَيْشِ المُهَنَّا» فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى» قال: ففيم نكفنك؟ فقال: «فِي ثِيَابِي هذِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَّةٍ وَفِي بَيَاض مِصْرَ» فقال: كيف الصلاة عليك منا؟ وبكينا وبكى ثم قال: «مَهْلاً غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا، إذا غَسلْتُمُونِي وَكَفنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي، ثُمَّ اخْرجُوا عَنِّي سَاعَةً، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلي عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الاحزاب :٤٣] ثُمَّ يَأْذَنُ لِلْمَلائِكَةِ فِي الصَّلاةِ عَلَيَّ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُل عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيل ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ المَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ المَلائِكَةُ بِأَجْمَعِها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَنْتُمْ فادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمْرَة وَسَلِمُوا تَسْلِيمًا، وَلا تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَةٍ ولا صَيْحَةٍ وَلا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُم الإمامُ وأَهْلُ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى، ثُمَّ زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصِّبْيَانِ» قال فمن يدخلك القبر؟ قال: «زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى مَعَ مَلائِكَةٍ كَثِيرةٍ لا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرونَكُمْ قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ بَعْدِي» (١).

وقال عبد الله بن زمعة: جاء بلال في أوّل شهر ربيع الأوّل فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ» فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر فلما كبَّر وكان رجلاً صيتًا سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال: «أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذلِكَ وَالمُسْلِمُونَ» قالها ثلاث مرات، «مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال: «إِنَّكُنَّ صُوَيْحِباتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» قال: فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت. فيقول عبد الله: إني لم أر أحدًا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها: وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله، وخشيت أيضًا أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى في مقام النبي ﷺ وهو حي أبدًا إلا أن يشاء الله، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (٢).

---

(١) حديث ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر «سل يا أبا بكر». رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد عن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

(٢) حديث عبد الله بن زمعة: جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي ﷺ «مروا أبا بكر فليصل بالناس». أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله: «فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق. . . إلى آخره» ولم يقل: في أول ربيع الأول، وقال «مروا من يصلي بالناس» وقال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» مرتين وفي رواية له فقال: «لا! لا! لا! ليصل للناس ابن أبي قحافة» يقول ذلك مغضبا، وأما ما في آخره من قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء! فقال: «إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وقالت عائشة رضي الله عنها: فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينا نحن على ذلك لـم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني هذا الملك يستأذن عليَّ» فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلاً، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: «ادخلن» فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَجَلْ يا عَائِشَةُ هذا مَلَكُ المَوْتِ جَاءَنِي فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وأَمَرَنِي أَنْ لا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إلاّ بِإذْنٍ، فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِي أَرجعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِي فَمَاذَا أَمْرُكَ؟ فَقُلْتُ: اكْفُفْ عَنِّي حَتَّى يَأْتِيَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فهذه ساعة جبريل» فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئًا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظامًا لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا.

قالت: وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفًا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنَّة في أمتك فقال: «أجدني وجعًا» فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال: «يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليَّ» وأخبره الخبر فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدًا، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق، قال: «فَلا تَبْرَحْ إِذَنْ حَتَّى يَجِيءَ» وأذن للنساء فقال: «يا فَاطِمَة ادْنِي» فاكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام، ثم قال: «أَدْنِي مِنِّي رَأْسَكِ» فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأينا منها عجبًا، فسألتها بعد ذلك فقالت: أخبرني وقال: «إنِّي مَيِّتٌ اليَوْمَ» فبكيت ثم قال: «إنِّي دَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُلْحِقَكِ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلي وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِي» فضحكت، وأدنت ابنيها منه فشمهما.

قالت: وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: «أَلْحِقْنِي بِرَبِّي الآنَ» فقال: بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت: وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدًا، طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك، وما لي فيها حاجة إلا حضورك، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدًا بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا، قالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحًا ما رأيته من إنسان قط، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح؟ فقال: «يا عَائِشَةُ إنَّ نَفسَ المُؤمِنِ تَخْرُجِ بِالرَّشْحِ وَنَفْسُ الكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقَيْهِ كَنَفَسِ الحِمَارِ»

فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا، فكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده أخي، بعثه إليَّ أبي، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمي عليه قال: «بَل الرَّفِيق الأَعْلَى» كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ إِنَّكُمْ لا تَزَالُونَ مُتَمَاسِكِينَ ما صَلَّيْتُمْ جَمِيعًا» الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ» (١).

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين (٢). قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقيت من يوم الاثنين، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم يوم أصيب علي كرّم الله وجهه بالكوفة مثلها: ما لقيت من يوم الاثنين، مات فيه رسول الله ﷺ، وفيه قتل علي، وفيه قتل أبي، فما لقيت من يوم الاثنين. وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله عز وجل، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم (٣).

---

(١) **موضوع**: حديث عائشة: لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني! هذا الملك يستأذن علي». بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته ﷺ، أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه: فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد ﷺ في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه. وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال «يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل» قال خلفته في سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له، وفيه ادن يا ملك الموت فانته إلى ما أمرت به... الحديث. وفيه: فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي ﷺ وذكر كربه لذلك، إلى أن قال: فقبض رسول الله ﷺ، وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر، وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد: كان يكذب على وهب بن منبه، وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني، ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي: أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك؟ ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله: «امض لما أمرت به» وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله. إن ربك يقرئك السلام فقال: «أين جبريل» فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل... الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث، [الضعيفة: ٥٣٨٤].

(٢) حديث عائشة: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين. رواه ابن عبد البر.

(٣) حديث عائشة: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بثوبه. لم أجد له أصلا وهو منكر.

وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله ﷺ فإنه لم يمت، والله لا أسمع أحدًا يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما علي فإنه أقعد فلا يبرح البيت. وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدًا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت، ولقد قال وهو بين أظهركم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين، فقد والله توفي رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية (١) فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ.

وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيًا وميتًا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختيارًا منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (٢).

وعن ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجًا سمعه أهل المصلى، كلما ذكر شيئًا ازدادوا، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال:

---

(١) صحيح: حديث: بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج. أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي وأمي أنت، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. ولهما من حديث ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس... الحديث. وفيه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. لفظ البخاري فيهما.

(٢) حديث: أن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيناه تهملان. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف: جاء أبو بكر ورسول الله ﷺ مسجى فكشف الثوب عن وجهه... الحديث إلى آخره.

السلام عليكم يا أهل البيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران :١٨٥] الآية. إن في الله خلفًا من كل أحد ودركًا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا. فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدًا. ثم عادوا فبكوا فناداهم منادٍ آخر لا يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، إنّ في الله عزاء من كل مصيبة وعوضًا من كل رغيبة، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي ﷺ (١).

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال: قام أبو بكر في الناس خطيبًا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فللّه الحمد وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما شرع وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين، اللهم فصلِّ على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة. اللهم قرّب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعًا، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء ١٣٥] ولا يشغلنكم

---

(١) حديث ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا. لم أجد فيه ذكر «اليسع» وأما ذكر «الخضر» في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال: إنما ذكره الأصحاب. قلت: بل قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال: لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتي باب البيت فبكى على رسول الله ﷺ ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب. ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر: على الرجل، فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدًا، فقال أبو بكر: لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا. ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جدًا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب: لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم. فقال علي: تدرون من هذا؟ هو الخضر. وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمعروف عن علي بن الحسين مرسلا غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر «الخضر».

الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم.

وقال ابن عباس: لما فرغ أبو بكر من خطبته قال: يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله ﷺ ؟ أما ترى أن نبي الله ﷺ قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا، وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر :٣٠] فقال: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة :١٥٦] وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله ﷺ. ثم جلس إلى أبي بكر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما اجتمعوا لغسله قالوا: والله ما ندري كيف نغسل رسول الله ﷺ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه؟ قالت: فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائمًا ثم قال قائل، لا يدرى من هو، غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله ﷺ في قميصه، حتى إذا فرغوا من غسله كفن. وقال علي كرم الله وجهه: أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه. فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقيًا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه، وإن معنا لحفيفًا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون. فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ ولم يترك سبدًا ولا لبدًا إلا دفن معه. قال أبو جعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة (١) ففي وفاته عبرة تامة وللمسلمين به أسوة حسنة.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق :١٩] انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت. وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ. ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعو لك طبيبًا ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليَّ طبيبي وقال: إني فعال لما أريد. ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده

---

(١) حديث أبي جعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة.

أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله ﷺ وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فتقدم أيضا.

فقال: يا أبا بكر أوصنا فقال: إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنّ منها إلا بلاغك، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف، فاستخلف عمر رضي الله عنه، فقال الناس له: استخلفت علينا فظًا غليظًا فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك. ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال: إني موصيك بوصية؛ اعلم أن لله حقًا في النهار لا يقبله في الليل، وأن لله حقًا في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا بالحق أن يثقل. وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء؛ فإن اللّه ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبًا راهبًا ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بدّ لك منه، ولست بمعجزه.

وقال سعيد بن المسيب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ زوّدنا فإنا نراك لما بك. فقال أبو بكر: من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين، قالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار، يغشاه كل يوم مائة رحمة، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان: اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم، ثم جعلتهم فريقين فريقًا للنعيم وفريقًا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير. اللهم إنك خلقت الخلق فرقًا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيًا وسعيدًا وغويًا ورشيدًا، فلا تشقني بمعاصيك، اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك. اللهم إنّ أحدًا لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك. اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد فلا يتحرّك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في تقواك. اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلني من خير القسمين. اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً، فاجعلني من سكان جنتك. اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك. فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقرّبني إليك زلفى. اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله» قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله عز وجل.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

قال عمرو بن ميمون: «كنت قائمًا غداة أصيب عمر وما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس، وكان إذا

مرَّ بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللاً قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدّم فكبر. قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه أبو لؤلؤة، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يمينًا أو شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدّمه، فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن العباس انظر من قتلني قال: فغاب ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر رضي الله عنه: قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفًا. ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقًا فقال ابن عباس: إن شئت فعلت؛ أي إن شئت قتلناهم، قال: بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال: وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال: فقائل يقول أخاف عليه، وقائل يقول: لا بأس. فأتي بنبيذ فشرب فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشرب فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت. قال: فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل؛ قد كان لك صحبة من رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كان كفافًا لا عليّ ولا لي. فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال: ردوا علي الغلام، فقال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. ثم قال: يا عبد الله انظر ما عليَّ من الدين؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه، فقال: إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم؛ وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، وأدِّ عني هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً فسمعنا بكاءها من داخل. فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعدًا فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر، فإني لم أعزله من عجز ولا

خيانة. وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا فإنهم رده الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدوّ وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم. قال: فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت: أدخلوه، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه... الحديث...

وعن النبي ﷺ قال: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَيَبْكِي الإِسْلامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ» [1]، وعن ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقي الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيرًا أسمع النبي ﷺ يقول: «ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ» [2]. فإني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما.

وفاة عثمان رضي الله عنه:

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام: أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال: مرحبًا يا أخي رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال: «يا عُثْمَانُ حَصَرُوكَ؟» قلت: نعم قال: «عَطشُوكَ» قلت: نعم، فأدلى إليَّ دلوًا فيه ماء فشربت حتى رويت، حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال لي: «إِنْ شِئْتَ نُصِرْتَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ شِئْتَ أَفْطَرْتَ عِنْدَنا» فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه.

وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح: ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا: سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد ﷺ ثلاثًا قال: والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدًا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة.

وعن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال: ائتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم عليَّ قال: فجيء بهما كأنما هما حملان أو حماران، فأشرف عليهما عثمان رضي الله عنه فقال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: من يشتري رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في

---

(١) حديث «قال لي جبريل عليه السلام لبيك الإسلام على موت عمر». أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون، فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر». متفق عليه.

الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنّ المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلان فَيَزِيدُها فِي المَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْها فِي الجَنَّةِ؟» فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال: فركضه برجله وقال: «اسْكُنْ ثَبِيرُ فَمَا عَلَيْكَ إلاَّ نَبِيٌّ وَصَدِيقٌ وَشَهِيدانِ؟» قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد [1].

روي عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٧]اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني.

وفاة علي كرم الله وجهه:

قال الأصبغ الحنظلي: لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام عليّ يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك للمو ... ت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حـل بـواديـكـا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه. فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول: ما لي ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة؛ وقتل أبي صلاة الغداة.

وعن شيخ من قريش أنّ عليًا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة. وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله، حتى قبض.

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله عنه فقال: يا أخي لأي شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال: يا أخي أقدم على أمر لم أقدم على مثله. وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال: لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل من الأمر ما ترون وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرمًا.

(١) **حسن:** حديث ثمامة بن حزن القشيري: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه». أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي.

الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك.

وروي عن شيخ من قريش: أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضونًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدّتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالاً بعد حال وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أفَ للدنيا من دار، ثم أفَ لها من دار.

ويروى أنّ آخر خطبة خطبها معاوية أن قال: أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإني وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي إلا وهو شر مني، كما كان من قبلي خيّرًا مني ويا يزيد إذا وفى أجلي فولِّ غسلي رجلًا لبيبًا، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جديدي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين. وقال محمد بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال: يا ليتني كنت رجلًا من قريش بذي طوى وإني لم أل من هذا الأمر شيئًا.

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوي ثوبًا بيده ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: ليتني كنت غسالاً آكل من كسب يدي يومًا بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه. وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام :٩٤] الآية. ومات.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص :٨٣] ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا فقلت لوصيف له: انظر أنائم هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت. وقيل له لما حضره الموت: اعهد يا أمير المؤمنين قال: أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بدّ لكم منه.

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب فلما نظر إليه قال: أرى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضًا على من لم يسق السم قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال: فتعالج يا أمير

المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خر لعمر في لقائك؛ فلم يلبث إلا أيامًا حتى مات وقيل: لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننًا وأظهر بك عدلاً فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات: ولما قرب وقت موته قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر فقيل له في ذلك فقال: إني لأرى خضرة؛ ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ * هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة :٢٨-٢٩].

وفرش المأمون رمادًا واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه. وكان المعتصم يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين؟

فقال: ليس إلا هذا؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة، وقد نظر إلى صناديق لبنيه: من يأخذها بما فيها ليته كان بعرًا.

وقال الحجاج عند موته: اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي. فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها، ولما حكي ذلك للحسن قال: أقالها؟ قيل: نعم. قال: عسى.

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذًا رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. ولما اشتد به النزع ونزع نزعًا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال: رب ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺأن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب [(١)]. فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهمًا.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه فقال: بل واطرباه غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

---

(١)حديث: لما حضرت سلمان الوفاة بكى. وفيه عهد إلينا رسول الله ﷺ «أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب». أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وقد تقدم.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً يبشرني بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته؛ ولكن أخاف أني أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم.

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من الموت ولا حرصًا على الدنيا ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء.

ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه واقلة زاداه.

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرًا غريبًا قال: اسكت فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء، ثم قال له: لقني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان.

وقال عطاء بن يسار: تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت فقال: ما آمنك بعد. وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال: إن أمرًا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره، وإن أمرًا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وقال الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي؟

وقال رويم: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول:

حنينُ قلوب العارفين إلى الذكر	وتذكارهم وقت المناجاة للسرِّ
أديرت كؤوسُ المنايا عليهم	فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي الشكرِ
همومهمُ جوّالة بمعسكرٍ	به أهل ودّ الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم	وما عرجوا من مسٍّ بؤس ولا ضرِّ

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقًا. وقيل لذي النون عند موته: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقيل لبعضهم وهو في النزع: قل: الله فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله. وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال: السلام عليكم؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟ قال: فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ما

شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجليه ومات. وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه، فصاحت امرأة تواجدًا فقال لها: موتي، فقامت المرأة، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت: قد مت، ووقعت ميتة. ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت: لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول: يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره. وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه؟ فقال: قال: عليّ درهم مظلمة، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال: وضئني للصلاة؛ ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة؟

وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة؟ فقال: القدوم على الله شديد. وقيل لصالح بن مسمار: ألا توصي بابنك وعيالك؟ فقال: إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره.

ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم، فقال لهم: ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير؟

ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له: أوصنا. فقال: احفظوا مراد الحق فيكم.

واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: عليك أبكي فقال: إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت اليوم أربعين سنة. وقال الجنيد: دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال: كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق؟ ثم أنشأ يقول:

القلبُ محترقٌ والدمعُ مستبقٌ والكرب مجتمع والصبر مفترقُ
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلقُ
يا رب إن يك شيء فيه لي فرج فامنن عليَّ به ما دام لي رَمَقُ

وحكي أنّ قومًا من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له: قل لا إله إلا الله، فأنشأ يقول:

إن بيتًا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرجِ
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحججِ
لا أتاح الله لي فرجًا يوم أدعو منك بالفرجِ

وحكي أنّ أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه، ثم أجاب بعد ساعة وقال: اعذرني فإني كنت في وردي ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبَّر ومات. وقيل للكتاني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه. وحكي عن المعتمر قال: كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق، فقلت: اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال: من المتكلم؟ فقلت: أنا فقال: إنّ ملك الموت عليه السلام يقول لي: إني بكل سخي رفيق، ثم طفئ.

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقًا فقال: يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع؟ فقال: يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة: واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال: دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول: يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي. ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له: فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي. وقيل لرويم عند الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: لا أحسن غيره. ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: أليس ثم أمر؟ ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقًا ولسوء عملي ملاقيًا ولكأس المنية شاربًا وعلى الله تعالى واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي	جعلت رجائي نحو عفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منة وتكرّما
ولولاك لم يغو بإبليس عابد	فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: يا بني باب كنت أدقه خمسًا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أوان الجواب.

فهذه أقاويلهم، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور

اعلم أنّ الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبدًا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب، لا يقدرون، ولا يتفكرون أنّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا

يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمول عليها، على القرب وكأن قد، ولعله في غد أو بعد غد.

ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون. موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأوّل والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدّثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه. ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت حيًّا.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي؟ لحزن الجميع. وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعًا باكيًا.

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها. ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا. فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت. نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال: لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرًا لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن. وقال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعرًا فأطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز. وأنشأ يقول:

تروّعنا الجنائز مقبلات	ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب	فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز:

التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع، كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه، ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقًا، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها. ولذلك روي عن عمر بن ذرّ أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفًا على نفسه، فتجافى كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا؟ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا؟.

ويحكى أنّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملتها إلى الصحراء للدفن؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد

الكبار، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال: قيل لي في المنام: انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلِّ عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب الناس فاستدعى امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر فقال: انظري هل تعرفين منه شيئًا من أعمال الخير؟ قالت: نعم؛ ثلاثة أشياء: كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق.

والثاني: أنه كان أبدًا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم.

والثالث: أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا رب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه. فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره. وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور:

قال الضحاك: قال رجل: يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: «مَنْ لَمْ يَنْسَ القَبْرَ وَالبِلَى وَتَرَكَ فَضْـلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ ما يَبْقَى عَلَى مـا يَفْنَى ولَمْ يَعُدَّ غَدًا مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ» (١)، وقيل لعلي كرّم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة. وقال رسول الله ﷺ: «ما رَأَيْتُ مَنْظَرًا إلاّ وَالقَبْرُ أَفْظَع مِنْهُ» (٢). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه. فبكى وبكيت وبكوا فقال: «ما يُبْكِيكُمْ؟» قلنا: بكينا لبكائك قال: «هذا قَبْرُ أُمِّي آمِنَةَ بِنْت وَهَبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي، فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَدْرَكَنِي ما يُدْرِكُ الوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ» (٣)، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فسئل عن ذلك وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ القَبْرَ أَوَّل مَنَازِلِ الآخِرَةِ فإنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبهُ فَما بَعْدَهُ أَيْسَر مِنْهُ وَإنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ» (٤)،

---

(١) حديث الضحاك: قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: «من لم ينس القبور والبِلَى». تقدم.

(٢) حديث «ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه». تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

(٣) حديث عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم. وفيه «هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي...» وتقدم في آداب الصحبة أيضا، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب، وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانئ ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح.

(٤) حديث عثمان: كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته. وفيه: إن القبر أول منازل الآخرة. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة.

وقيل إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما. وقال مجاهد: أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذرّ: ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكروني معادي وإذا قمت لم يغتابوني. وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلاً ويقول: يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خرّ مغشيًا عليه. وكان يزيد الرقاشي يقول: أيها المقبور في حفرته والمتخلي في القبر بوحدته المستأنس في بطن الأرض بأعماله. ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور.

وقال حاتم الأصم: من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم. وكان بكر العابد يقول: يا أماه ليتك كنت بي عقيمًا إن لابنك في القبر حبسًا طويلاً ومن بعد ذلك منه رحيلاً. وقال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها، وإن أجبته من قبرك منعتها. وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول: يا أهل القبور متم فواموتاه وعاينتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدًا عطاء في القبور، غدًا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح. وقال سفيان: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرًا، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] يرددها، ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فاعمل. وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم، فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليَّ فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلاً في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله. وقال ثابت البناني: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها. ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت:

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل: إنها ضربت على قبره فسطاطًا واعتكفت عليه سنة. فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة، فسمعوا صوتًا من جانب البقيع: هل وجدوا ما فقدوا؟ فسمعوا من الجانب الآخر: بل يئسوا فانقلبوا.

وقال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة، وفيهم الحسن، فقال له الحسن: يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة. فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ... أشدّ من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ ... عنيفٌ وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور:

قِفْ بالقبور وقلْ على ساحاتها ... مَنْ منكم المغمور في ظُلُمَاتِها
ومن المكرّم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذي العيون فواحد ... لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسنٍ ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازلٌ في روضة ... يفضي إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرمُ الطاغي بها متقلبٌ ... في حفرة يأوي إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... في شدّة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت الحياة ولا نلتها ... إذا كنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى ... وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت: يا ابناه بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشيًا عليه. وقال مالك ابن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

أتيت القبورَ فناديتها ... فأين المعظم والمحتقرْ
وأين المدل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخرْ

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتًا ولا أرى شخصًا وهو يقول:

تفانوا جميعًا فما مخبر ... وماتوا جميعًا ومات الخبرْ
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصورْ
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبرْ

قال: فرجعت وأنا باك. أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبًا على قبر:

تناجيك أجداثٌ وهنَّ صموتُ وسكَّانها تحت التراب خفوتُ
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وَأنتَ تموتُ

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكمُ
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدمُ

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يمرّ أقاربي جنبات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

إن الحبيب من الأحباب مختلسُ لا يمنع الموت بواب ولا حَرَسُ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمسًا وأنت دهرك في اللذات منغمسُ
لا يرحم الموت ذا جهل لغرّته ولا الذي كان منه العلم يقتبسُ
كم أخرس الموت في قبر وقفت به عن الجواب لسانًا ما به خَرَسُ
قد كان قصرك معمورًا له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مُنْدرِسُ

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

وقفت على الأحبّة حين صفت قبورهم كأفراس الرهانِ
فلما أن بكيت وفاض دمعي رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبًا:

قد قلت لما قال لي قائل صار لقمان إلى رمسهِ
فأين ما يوصف من طبِّه وحذقه في الماء مع جسّهِ
هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسهِ

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

يا أيها الناسُ كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجلُ
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العملُ
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقلُ

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت. والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم،

وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها، فوطّن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار. فقد قال بعض الصالحين: رأيت أخًا لي في الله فيما يرى النائم، فقلت: يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين، قال: لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانًا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

بيان أقاويلهم عند موت الولد:

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزي به كل مصاب، قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أُقدِّمَ سِقْطًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَلِّفَ مِائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[1]، وإنما ذكر السقط تنبيهًا بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب. وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنًا شديدًا فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبًا قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «لا يَمُوت لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَحْتَسِبَهُمْ إلاّ كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ» فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان؟ قال: «أو اثنان»[2]، وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة.

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال: اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم. ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من بري فهب له ما قصر فيه من طاعتك. وما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ بعد ما وضعه في لحده، فقال: يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك. فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ذرّ متعتني به ما متعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي

(١) ضعيف: حديث «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله». لم أجد فيه ذكر «مائة فارس» وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة «السقط أقدمه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خلفي»، [ضعيف الجامع: ٤٣٠٧].

(٢) حديث «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم». تقدم في النكاح.

عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك. ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت: يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد، قال: فكيف؟ قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطًا في دمه، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشًا من شدّة الحر، قالت: فأرادني الدهر كما ترى. فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدّة الجزع، فما من مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر.

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به:

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد[١].

روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لا تَقُولُوا هُجْرًا»[٢]، وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيًا أكثر من يومئذ[٣]، وفي هذا اليوم قال: «أذِنَ لِي فِي الزِّيارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ»[٤]. كما أوردنا من قبل. وقال ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة رضي الله عنها يومًا من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن، فقلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم، ثم أمر بها[٥]، ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر، فإنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها. نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها

---

(١) حديث: نهيه عن زيارة القبور ثم إذنه في ذلك. أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم.

(٢) حديث علي «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا». رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى «غير أن لا تقولوا هجرا» وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري: لم يصح، وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) حديث: زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكبا وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها.

(٤) حديث «وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار». تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي».

(٥) **صحيح**: حديث ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن قلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم ثم أمر بها. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد، [الإرواء: ٧٧٥].

وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر.

وقال أبو ذرّ قال رسول الله ﷺ: «زُرِ القُبُورِ تَذْكُرْ بِها الآخِرَةَ، وَاغْسِلِ المَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَصَلِّ عَلى الجَنَائِزِ لَعَلَّ ذلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فإنَّ الحَزِينَ في ظِلِّ اللَّهِ» [1].

وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ: «زُورُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةً» [2] وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه. وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام، فتصلي وتبكي عنده. وقال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِما فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرًّا» [3]. وعن ابن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالداهُ وَهُوَ عاقٌّ لَهُما فَيَدْعُو اللَّهَ لَهُما مِنْ بَعْدِهِما فَيَكْتُبُهُ اللَّهُ مِنَ البَارِّينَ» [4]، وقال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي» [5]، وقال ﷺ: «مَنْ زَارَنِي بِالمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ القِيَامَةِ» [6]، وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفًا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفًا من الملائكة يوقرونه.

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلًا بوجهه الميت، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى. قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف. وعن أبي أمامة قال: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إلاّ اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُوم» [7] وقال سليمان بن سحيم: رأيت

---

(١) **ضعيف**: حديث أبي ذر «زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة». أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد، [الضعيفة: ٣٦٦٣].

(٢) **ضعيف**: حديث ابن أبي مليكة «زروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا وإسناده حسن، [ضعيف الجامع: ٣٥٣٤].

(٣) **موضوع**: حديث «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا». أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك، [الضعيفة: ٤٩].

(٤) **ضعيف**: حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة أبي العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف، [الضعيفة: ٩١٥].

(٥) حديث «من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي». تقدم في أسرار الحج.

(٦) حديث «من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة». تقدم فيه.

(٧) حديث عائشة «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم». أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي.

رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: نعم وأردُّ عليهم. وقال أبو هريرة: إذا مرَّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام.

وقال رجل من آل عاصم الجحدري: رأيت عاصمًا في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، فقلت: أين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم. قلت أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قلت: وكيف ذاك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة، فقيل له: لو أخرت إلى يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوَّارهم يوم الجمعة ويومًا قبله ويومًا بعده. وقال الضحاك: من زار قبرًا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على باب المقابر، فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات. قال الرجل: فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاؤوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر. قلت: ما جاء بكم؟ قالوا: إنك قد عوّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو لنا بها، قلت: فإني أعود بذلك، فما تركتها بعد ذلك. وقال بشار بن غالب النجراني: رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذاك؟ قالت: وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك. قال رسول الله ﷺ: «ما المَيْتُ فِي قَبْرِهِ إلاّ كَالغَرِيقِ المُغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ، فإذا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها، وَإِنَّ هَدَايا الأَحْيَاءِ لِلأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالاسْتِغْفَارُ» (١).

وقال بعضهم: مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيًا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به.

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له.

وقال سعيد بن عبد الله الأزدي: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع، فقال: يا سعيد إذا مت

---

(١) حديث «ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل.

فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدًا ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأنك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالقرآن إمامًا، فإن منكرًا ونكيرًا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما»، فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال: «فَلْيَنْسُبْهُ إِلَى حَوَّاءَ» [١].

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور. روي عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال ثقة: قال: هل كتبت عنه شيئًا؟ قال: نعم، قال: أخبرني مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها، وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك، فقال له أحمد: فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ، وقال محمد بن أحمد المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوّذتين وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرًا أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا نور أمثال الجبال.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به.

وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر في قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاءه وكيف يبعث من قبره؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال: كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور، فبلغني أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت: إنّ القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشدّ تلفها للأبدان، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز؛ حيث

---

(١) منكر: حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «ذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة». في تلقين الميت في قبره أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف، [الضعيفة: ٥٩٩].

دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له: يا فلان لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان. وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن.

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا ماتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلا تَقَعُوا فِيهِ» (١)، وقال ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوا إِلَى ما قَدَّمُوا» (٢)، وقال ﷺ: «لا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إلاّ بِخَيْر فَإِنَّهُمْ إنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ تَأْثَمُوا وَإنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَحَسْبُهُمْ ما هُمْ فِيهِ» (٣)، وقال أنس بن مالك: مرّت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شرًّا فقال عليه السلام: «وَجَبَتْ» ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيرًا فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ» فسأله عمر عن ذلك فقال: «إنَّ هذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة، وَهذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّار وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّه فِي الأَرْضِ» (٤). وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ القَوْمُ الثنَاءَ يَعْلَم اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِملائِكَتِهِ أُشْهِدُكُمْ أنّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبيدي عَلَى عَبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي» (٥).

الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت:

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونًا كاذبة قد أخطؤوا فيها.

فظنّ بعضهم: أنّ الموت هو العدم، وأنه لا حشر له ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر، وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات. وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وظنّ قوم: أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعذاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر.

وقال آخرون: إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإنّ الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً.

---

(١) **صحيح:** حديث «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه». أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد، [صحيح الجامع: ٧٩٤].

(٢) **صحيح:** حديث «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا». أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضا، .

(٣) **صحيح:** حديث «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» . . . الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة بإسناد جيد مقتصرا على ما ذكر منه هنا بلفظ «هلكاكم» وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني، [صحيح الجامع: ٢٢٤٥].

(٤) **صحيح:** حديث أنس: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شرا فقال «وجبت». متفق عليه، .

(٥) حديث أبي هريرة «إن العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره». أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل «ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا وغفرت له ما أعلم».

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق. بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنّ الموت معناه تغير حال فقط وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء. فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث. والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده. وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها. وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها، وأعني بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح. ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات. والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت. أي لا ينعدم. ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أنّ معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة. فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية.

نعم تغير حاله من جهتين:

إحداهما: أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين. وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويعتدّ بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

والثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفًا له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفًا له في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأوّل ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطورًا في كتاب مطوي في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرًا يؤثر

أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء :١٤] وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن، وتشتعل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة، فإن من طلب الزاد للبلغة إذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه. وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه، فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه. وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن.

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه، ولكن حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادًا على أنّ الملك يتساهل في أمره، أو على أنّ الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوّنت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه. فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم. فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به، بل عند موته نعوذ بالله منه، فإنّ الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما. فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة.

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها، «ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء :٨٥] »[1]، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت.

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها. آيات وأخبار كثيرة.

أما الآيات: فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران :١٦٩-١٧٠] ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال: «يا فلان يا فُلان يا فُلان قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا» فقيل: يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لأَسْمَعُ لِهذا الكَلامِ مِنْكُمْ إلاَّ أَنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ عَلَى الجَوَابِ»[2]، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء. ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة. وقال ﷺ: «القَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ

---

(١) حديث: إنه لم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] وقد تقدم.

(٢) صحيح: حديث: «ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا». أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب، .

رِياضِ الجَنَّةِ» [١]، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته» [٢]، وقال ﷺ: «إذا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً إنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِن الجَنَّةِ وَإنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِن النَّارِ وَيُقَالُ هذا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» [٣]، وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال: كنا مع علقمة في جنازة فقال: أما هذا فقد قامت قيامته. وقال علي كرم الله وجهه: حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ غَرِيبًا مَاتَ شَهِيدًا وَوقِيَ فَتَّاناتِ القَبْرِ وَغُدِيَ وَرِيحَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الجَنَّةِ» [٤] وقال مسروق: ما غبطت مؤمنًا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى. وقال يعلى بن الوليد: كنت أمشي يومًا مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن، والموت إطلاق المؤمن من السجن. وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا، والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء. فكل ما سوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة. ولهذا قال عبد الله بن عمرو: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها. وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع.

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعًا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه وتجرّد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير. والقتال سبب للموت فكان سببًا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة. فلهذا عظم النعيم، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل :٥٧] فكان هذا أجمع عبارة لمعاني

---

(١) حديث «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف.

(٢) حديث أنس «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم.

(٣) صحيح: حديث «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية». متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٤) ضعيف جدًا: حديث أبي هريرة «من مات غريبا مات شهيدا ووقي فتّانا القبر». أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا «فتان»، [الضعيفة].

لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤] فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم. وهذا النعيم يدركه الشهيد. كما انقطع نفسه. من غير تأخير. وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين. وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ لجابر: «ألا أبشرك يا جابر» وكان قد استشهد أبوه يوم أُحُد فقال: بلى بشرك الله بالخير فقال: «إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال: تمن عليَّ يا عبدي ما شئت أعطيكه فقال: يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له: إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع» [(١)].
وقال كعب: يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له: لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال: أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات.

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم، وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلاً فقال لرجل مات: «أَصْبَحَ هذا مُرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيَا وَتَرَكَها لأَهْلِهَا فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلا يسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيا كَمَا لا يسرُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ» [(٢)]، فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم.

وقال ﷺ: «إنَّ مَثَلَ المُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إذا خَرَجَ مِنْ بَطْنِها بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إذا رَأَى الضَّوْءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى مَكَانِهِ» [(٣)]، وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله ﷺ: «إنَّ فُلانًا قَدْ مَاتَ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ» [(٤)]، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه. وقال أبو عمر صاحب السقيا: مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر

---

(١) **حسن**: حديث عائشة «ألا أبشرك يا جابر». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر «ألا أبشرك بما لقي الله به أباك» قال: بلى يا رسول الله... الحديث وفيه فقال «يا عبدي تمن علي أعطك قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون»، [صحيح الترمذي].

(٢) حديث: قال لرجل مات «أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه». أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات.

(٣) حديث «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنائزي مرسلا هكذا.

(٤) حديث: قيل لرسول الله ﷺ إن فلانا قد مات فقال «مستريح أو مستراح منه». متفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ: مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف.

إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال: إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئًا وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة. وعن عمرو بن دينار قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم. وقال مالك بن أنس: بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت. وقال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «ألاَ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاّ مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوّها فاللَّهَ اللَّه فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ» (١)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «لا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّها تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ» (٢)، ولذلك قال أبو الدرداء: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة. وكان قد مات وهو خاله. وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال: في حواصل طير بيض في ظل العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ المَيتَ يَعْرِفُ مَنْ يغسِلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ في قَبْرِهِ» (٣). وقال صالح المري: بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم: كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث؟ وقال عبيد بن عمير: أهل القبور يترقبون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم... أو ما قدم عليكم؟ فيقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] سلك به غير سبيلنا. وعن جعفر ابن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب.

وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره. وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ إذا قُبِضَتْ تَلَقَاها أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا يَتَلَقى البَشِيرُ فِي الدُّنْيا يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيد فَيَسْأَلُونَهُ: ماذا فَعَلَ فُلانٌ وَمَاذا فَعَلَتْ فُلانَةُ؟ وَهَلْ تَزَوَجَتْ فُلانَة فَإذا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ: مَاتَ قَبْلِي قَالُوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ذُهِبَ بِهِ إِلَى أمه الهَاوِيَةِ» (٤).

---

(١) حديث النعمان بن بشير «ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوها فالله الله في إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم». أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدي عن النعمان من قوله «الله الله» ورواه بكماله الأزدي في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي إسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدي ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول، قال الأزدي لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدي.

(٢) ضعيف: حديث أبي هريرة «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور». أخرجه ابن أبي الدنيا والمحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنسانا عن أنس «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات... الحديث»، [ضعيف الجامع: ١٣٩٦].

(٣) ضعيف: حديث أبي سعيد الخدري «إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره». رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسبه عبد الملك بن حسن، [ضعيف الجامع: ١٧٩٤].

(٤) ضعيف جدًا: حديث أبي أيوب «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف، ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد، ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد، [الضعيفة: ٨٦٤].

بيان كلام القبر للميت:

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال، التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء. قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ القَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوْضَعُ فِيهِ وَيْحَكَ يا ابْنَ آدَمَ ما غَرَّكَ بِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الفِتْنَةِ وَبَيْتُ الظلْمَةِ وَبَيْتُ الوَحْدَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ ما غَرَّكَ بِي إذ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فذاذًا؟ فإن كانَ مُصْلِحًا أجابَ عَنْهُ مُجِيبُ القَبْرِ فيقولُ: أَرَأَيْتَ إنْ كانَ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهى عَنِ المُنْكَرِ فَيَقُولُ القَبْرُ: إنِّي إذًا أَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ خَضرًا وَيَعُودُ جَسَدُهُ نورًا وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى» (١). والفذاذ: هو الذي يقدّم رجلًا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي. وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعًا كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصيًا فأنا اليوم عليك نقمة، أنا الذي من دخلني مطيعًا خرج مسرورًا، ومن دخلني عاصيًا خرج مثبورًا. وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في متقدّمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك؟ وتناديه بقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرّته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولاً تهاداه أحبته إلى المنزل الذي لا بدّ له منه؟ وقال يزيد الرقاشي: بلغني أنّ الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا. وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة، قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه. قال: فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئًا طبت حيًّا وطبت ميتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشًا من الجنة ودثارًا من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره. وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المَيِّتَ يقعدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّعِيهِ فَلا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إلاّ قَبْرُهُ وَيَقُولُ وَيْحَكَ ياابْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حذرْتَنِي وَحذرْتَ ضِيقِي وَنَتْنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِي» (٢).

(١) موضوع: حديث «يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي! ألم تعلم أني بيت الفتنة» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في السكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي بإسناد ضعيف، [الضعيفة: ٤٩٩٠].

(٢) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره ويقول ويحك يابن آدم» أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه.

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسًا رأسه ثم قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» ثلاثًا ثم قال: «إنَّ المُؤْمِن إذا كانَ فِي قبلٍ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَلائِكَةً كَأنَّ وُجوهَهُم الشَّمْسُ مَعَهُم حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّ بَصَرِهِ، فإذا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كلُّ ملكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفتحتْ أبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ منها بابٌ إلاّ يُحِبُّ أنْ يُدْخَلَ بِروحِهِ مِنْهُ، فإذا صُعِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ: أيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانٌ فَيَقُولُ أرْجِعُوهُ فَأرُوهُ ما أعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الكَرَامَةِ فَإنِّي وَعَدْتُهُ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه :٥٥] وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَّوَا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالُ: يا هذا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الإسْلامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ قال: فَيَنْتَهِرَانِهِ انْتِهَارًا شَدِيدًا وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى المَيِّتِ، فإذا قالَ ذلِكَ نَادَى مُنَادٍ أنْ قد صَدَقْتَ وَهِيَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [ابراهيم :٢٧] ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فيقولُ: أبْشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّاتٍ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ، فيقول: وَأنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ مِنْ أنْتَ؟ فيقولُ: أنَا عَمَلُكَ الصَّالِح وَاللَّهِ ما عَلِمْتُ إنْ كُنْتَ لَسَرِيعًا إلَى طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا» قال: «ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ افْرُشُوا لَهُ مِنْ فَرشِ الجَنَّةِ وافْتَحُوا لَهُ بابًا إلى الجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فَرشِ الجَنَّةِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى الجَنَّةِ فيقولُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ قِيامَ السَّاعَةِ حَتَّى أرْجِعَ إلَى أهْلِي وَمالي» قال: «وأمَّا الكافِرُ فإنَّهُ إذا كانَ فِي قبل مِنَ الآخِرَةِ وانقطاعٍ مِنَ الدُّنْيا نزلت إلَيْهِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ مَعهم ثيابٌ مِنْ نارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قطرَانٍ فَيَحْتَوشُونَهُ فإذا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَينَ السَّماءِ وَالأرْضِ وكل مَلَكٍ فِي السَّماءِ وَغُلِّقَتْ أبْوَابُ السَّماءِ فَلَيسَ مِنها بابٌ إلاّ يَكْرَهُ أنْ يدخلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ، فإذا صَعِدَ بِروحِهِ نُبِذَ وَقيلَ: أيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانٌ لم تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلا أرْضٌ فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ارْجِعُوهُ فَأرُوهُ ما أعددت له من الشَّرِّ إنِّي وَعَدْتُه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه :٥٥] وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يقال لهُ: يا هذا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَما دِينُكَ؟ فيقولُ: لا أدْرِي فيقالُ: لا دَرَيْتَ، ثُمَّ يأتيهِ آتٍ قَبيحُ الوجهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ قبيحُ الثِّيابِ فيقولُ: أبْشِرْ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَبِعَذابٍ أليمٍ مُقِيم فيقولُ: بَشرَكَ اللَّهُ شَرًّا مَنْ أنْتَ؟ فيقولُ: أنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، واللَّهِ إنْ كنتَ لَسَرِيعًا في مَعْصِيَةِ اللَّهِ بطيئًا عن طاعةِ اللَّهِ فجزاك اللَّهُ شَرًّا فيقولُ: وَأنتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثم يُقَيَّضُ له أعْمَى أصَمُّ أبْكَمُ مَعَهُ مرزبةٌ مِنْ حديدٍ لو اجتمعَ عليها الثَّقَلانِ على أنْ يُقِلُّوها لم يَسْتَطِيعُوا، لَوْ ضُرِبَ بها جبلٌ صَارَ تُرابًا، فيضربُهُ بها ضربةً فَيَصِيرُ ترابًا، ثم تَعُودُ فيه الرُّوحُ فيضربهُ بها بين عينيه ضربةً يَسْمَعُهَا مَنْ عَلَى الأرَضِيْنَ، ليسَ الثَّقَلَين قال: ثم يُنادِي مُنادٍ أن افرشوا له لَوْحَينِ مِنْ نارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بابًا إلى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِن نارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بابٌ إلَى النَّارِ» (١).

---

(١) **صحيح**: حديث البراء: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسا رأسه ثم قال «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» . . . أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا، [صحيح الجامع: ١٦٧٦].

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال: فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُؤْمِن إذا احتضرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فيها مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرَّيْحَانِ فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ ويقالُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رُوحِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فإذا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذلِكَ المِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوِيَتْ عَلَيْهَا الحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِهَا إلى عِلِّيِّينَ وإنَّ الكَافِرَ إذا احتضِرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِمِسحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ فَتَنْزِعُ رُوحَهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا ويقال: أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى هَوَانِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فإذا أُخْرِجَت رُوحُهُ وُضِعَتْ على تِلْكَ الجَمْرَةِ وإنَّ لها نَشِيشًا وَيُطْوَى عليها المِسْحِ وَيُذْهَبُ بِها إلى سِجِّين»[(١)].

وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠] قال: أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: لا، لعلي أعمل صالحًا فيما تركت، قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[المؤمنون:١٠٠] أي ليقولنها عند الموت. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «المُؤْمِن فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُضِيءُ حَتَّى يَكُونَ كالقَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، هَلْ تَدْرُونَ فِي ماذا أُنْزِلَتْ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه:١٢٤]» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عَذَابُ الكافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَة وَتِسْعُونَ تِنِّينًا هَلْ تَدْرُونَ ما التِّنِّينُ، تسعةٌ وتِسْعُونَ حَيَّةً لكلِّ حَيَّةٍ تسعةُ رؤوس يخدشونهُ ويلحسونهُ وينفخونَ فِي جِسْمِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»[(٢)]، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولاً معدودة، ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام. وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوّة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم. فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئًا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا.

أحدها: وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم

---

(١) حديث أبي هريرة «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان». أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف.

(٢) حسن: حديث أبي هريرة «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا» . . . رواه ابن حبان، [صحيح الترغيب: ٣٥٥٢].

الملكوت. أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى.

المقام الثاني: أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه، وكل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنًا ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد.

المقام الثالث: أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب، والسبب يراد لثمرته لا لذاته.

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيًا عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذًا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلمًا، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال، بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتدّ عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة.

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحدُ

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم إلى أعدائه؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى، وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦] وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقًا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب. فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب، وحبه الفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه. فليستعد لهذه اللدغات؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه، ويأخذ منه جاهه وقبوله، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك إليه. فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات، لأنا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشدّ. لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت، إذ قد انسدّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس. فإذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفًا عليه ومعذبًا به، فإن كان مخفًّا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم: نجا المخفون، وإن كان مثقلاً عظم عذابه. وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله ﷺ: «صاحب الدرهم أخفّ حسابًا من صاحب الدرهمين»[1]، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك.

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها. فهذه مقامات الإيمان في حياة القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه.

رأى أبو سعيد الخدري ابنًا له قد مات في المنام فقال له: يا بني عظني، قال: لا تخالف الله تعالى فيما يريد، قال: يا بني زدني، قال: يا أبت لا تطيق قال: قل، قال: لا تجعل بينك وبين الله قميصًا. فما لبس قميصًا ثلاثين سنة.

فإن قلت: فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث؟ فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأوّل وأنكر ما بعده. ومنهم من أنكر الأوّل وأثبت الثاني. ومنهم من لم يثبت إلا الثالث. وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان. وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور. بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب. ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره.

هذا هو الحق فصدّق به تقليدًا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقًا، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان. فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى؟ وأهمل طريق الحيلة في

(١) حديث «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين». لم أجد له أصلا.

دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم، فينبغي أن يكون الاستعداد له. فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان.

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر:

قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إذا مَاتَ العَبْدُ أتاهُ مَلَكَانِ أسْوَدَانِ أزْرَقَانِ يقالُ لأحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلآخَرَ نَكِيرٌ، فيقولان لهُ: ما كنتَ تقولُ في النَّبيِّ؟ فَإنْ كانَ مؤمنًا قال هُوَ عَبْدُ الله ورسولُهُ أشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أنَّكَ تقولُ ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا وينور له في قبره، ثم يقال له: نم، فيقولُ: دَعُوني أَرْجِعْ إلى أهلي فَأُخْبِرهُمْ، فيقالُ له: نَمْ فينامُ كَنَوْمَةِ العروس الذي لا يُوقِظُهُ إلا أحَبُّ أهلِهِ إليهِ حَتَّى يبعثهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلكَ. وإن كان مُنافقًا قال: لا أدْرِي كنتُ أَسْمَعُ الناسَ يقولونَ شَيْئًا وكنتُ أقوله، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أنَّكَ تقولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأرْضِ الْتئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِم عَليهِ حتى تَخْتَلِفَ فِيها أضلاعُهُ فلا يزالُ مُعَذبًا حَتَّى يبعثهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكِ»[1].

وعن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك، كيف بك عند ذلك يـا عمر؟» فقال عمر: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: «نَعَمْ» قال: «إذن أكفيكهما»[2]، وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء. فيكون الميت عاقلاً مدركًا عالمًا بالآلام واللذات كما كان، لا يتغير من عقله شيء. وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء. ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائمًا باقيًا وهو كذلك بعد الموت، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم.

وقال محمد بن المنكدر: بلغني أنّ الكافر يسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من

---

(١) حسن: حديث أبي هريرة «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير». أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف، [صحيح الجامع: ٧٢٤].

(٢) حديث عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد. رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا قلت: ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس، ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر ؛ فقال عمر: أيرد إلينا عقولنا؟ فقال «نعم كهيئتكم اليوم» فقال عمر: بفيه الحجر.

حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة. لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه.

وقال أبو هريرة: إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن. وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان: والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه. قال سفيان: تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده، ثم يقال له عند ذلك: بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك.

زوعن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيها ثم قال: «يُضْغَطُ المُؤْمِنُ فِي هذا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهُ حَمَائِلُهُ» (١). وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْها أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» (٢).

وعن أنس قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة، فتبعها رسول الله ﷺ فساءنا حاله، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة، فلما خرج أسفر وجهه، فقلنا: يا رسول الله رأينا منك شأنًا فمم ذلك؟ قال: «ذكرتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ القَبْرِ، فَأَتَيْتُ فَأُخبِرتُ أَنَّ اللَّهَ قد خَفَّفَ عَنها وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا ما بَيْنَ الخَافِقَيْنِ» (٣).

الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء. ولكن حال زيد وعمرو بعينه لا ينكشف أصلاً، فإنا إن عوّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة :٢٧] فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان، ولكنّ الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها، ولا يتصور أن يبصر بها شيئًا من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه.

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه، والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا. ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في

---

(١) حديث حذيفة: كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال «يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله». رواه أحمد بسند ضعيف.

(٢) صحيح: حديث عائشة «إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ». رواه أحمد بإسناد جيد، [صحيح الجامع: ٢١٨٠].

(٣) حديث أنس: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة، وفيه «لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته[١] . وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر. ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم. إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضًا مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوّة. قال رسول الله ﷺ : «الرُّؤْيَا الصَّالِحَة جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبوَّةِ»[٢] . وهو أيضًا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدّق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام طاهرا[٣] . وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضًا فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها. ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[الفتح :٢٧][٤] . وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة.

ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود؛ وهو أن تعلم أنّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور، وأنّ كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين؛ كما ورد في القرآن. فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشًا لا يشاهد بهذه العين. ولا تظنن أنّ ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم، وأنّ الكتاب من كاغد أو رق، بل ينبغي أن تفهم قطعًا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم. بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه، ولو فتشت دماغه جزءًا جزءًا لم تشاهد من ذلك الخط حرفًا. وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشًا بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه. واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة

---

(١) حديث: رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد. تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله.

(٢) حديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». تقدم.

(٣) حديث: أمره بالطهارة عند النوم. متفق عليه من حديث البراء «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة. . . الحديث».

(٤) حديث: انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ في النوم. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلا.

تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب، فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم ملكوت، فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف، وقد يثبت ويدوم، وقد لا يدوم وهو الغالب. وما دام متيقظًا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة، وهو حجاب عن عالم الملكوت.

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا توره على القلب، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيًا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما، إلا أنّ النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعًا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير. ويكفيك مثال واحد وهو أنّ رجلًا قال لابن سيرين: رأيت كأنّ بيدي خاتمًا أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، قال: صدقت فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعًا للناس من الأكل والشرب، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح نعوذ بالله من ذلك وإما مكنوفًا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق :٢٢] ويقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور :١٥-١٦] وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر :٤٧] فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل همّ وغمّ إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة؟ لكان ذلك كافيًا في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرّيتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينًا، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل

ما شئت فإنك مجزيٌّ به»[(١)]، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفًا له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[(٢)]، ولم يخلف دينارًا ولا درهما[(٣)]، ولم يتخذ حبيبًا ولا خليلًا نعم قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمنِ»[(٤)]، فبين أنّ خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأنّ حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعًا لخليل ولا حبيب وقد قال لأمته: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران :٣١] فإنما أمته من اتبعه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فإنه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته. وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات :٣٧-٣٩] فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة، ولا تتحرّك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدًا من أمته وأتباعه وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم :٣٥-٣٦].

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات.

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة:

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺ وقد قال عليه السلام: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَام فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي»[(٥)]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فرأيته لا ينظر إليَّ فقلت: يا رسول الله ما شأني فالتفت إلي وقال: «ألست المقبّل وأنت صائم؟» قال: والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدًا. وقال العباس رضي الله عنه: كنت ودًا لعمر فاشتهيت أن أراه في المنام، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كان عرشي ليهدّ لولا أني لقيته رؤوفًا رحيمًا. وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أمتك؟ قال: ادع عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فخرج فضربه ابن ملجم. وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فأعرض عني فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله: إنك لم تسأل شيئًا قط فقلت: لا، فأقبل عليَّ فقال: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ»[(٦)].

---

(١) حديث «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه» . . . الحديث تقدم.

(٢) حديث: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة. تقدم أيضا.

(٣) حديث: لم يخلف دينارا ولا درهما. تقدم أيضا.

(٤) حديث «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكرخليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن». تقدم أيضًا.

(٥) حديث «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر: ما سئل النبي ﷺ شيئا قط فقال لا. رواه مسلم وقد تقدم.

وروي عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت مؤاخيًا لأبي لهب مصاحبًا له، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال: فرأيته يلتهب نارًا فسألته عن حاله فقال: صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد ﷺ فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحًا به، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين.

وقال عبد الواحد بن زيد: خرجت حاجًّا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ، فسألته عن ذلك فقال: أخبرك عن ذلك؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل؛ فبينا أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال: فقمت مذعورًا فكشف الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه، فداخلني من ذلك رعب، فبينا أنا في ذلك الغم إذ غلبتني عيني فنمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم: تنحوا، فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال: قم فقد بيَّض الله وجه أبيك فقلت له: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقال: أنا محمد. قال: فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله ﷺ.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: رأيت رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده، فسلمت وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتًا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله. وكان ذلك قبل قتله. فأنكره أصحابه فقال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدي؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى. فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يومًا بقتله في اليوم الذي رآه.

ورئي الصديق رضي الله عنه فقيل له: إنك كنت تقول أبدًا في لسانك: هذا أوردني الموارد، فماذا فعل الله بك؟ قال: قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة.

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين:

قال بعض المشايخ: رأيت متممًا الدورقي في المنام فقلت: يا سيدي ما فعل الله بك؟ فقال: دير بي في الجنان فقيل لي: يا متمم هل استحسنت فيها شيئًا؟ قلت: لا يا سيدي، فقال: لو استحسنت منها شيئًا لوكلتك إليه ولم أوصلك إلي. ورئي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قيل: بماذا؟ قال: ما خلطت جدًّا بهزل. وعن منصور بن إسماعيل قال: رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبًا واحدًا فإني استحييت أن أقرّ به، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت: ما كان ذلك الذنب؟

قال: نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره.

وقال أبو جعفر الصيدلاني: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وحوله جماعة من الفقراء، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما: بيده طشت، وبيد الآخر: إبريق، فوضع الطشت بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر: لا تصب على يده فإنه ليس منهم فقلت: يا رسول الله ﷺ أليس قد روي عنك أنك قلت: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ؟

قال: بلى، قلت: يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال ﷺ : «صُبَّ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

وقال الجنيد: رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس فوقف علي ملك فقال: أقرب ما تقرّب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا؟ فقلت: عمل خفي بميزان وفي فولّى الملك وهو يقول: كلام موفق والله. ورئي مجمع في النوم فقيل له: كيف رأيت الأمر؟ فقال: رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة. وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد: رأيتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال: لعل الشيطان أراد أمرًا فعصمت منه فأشخص رجلًا يقتلني وقال محمد بن واسع: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره. وقال صالح بن بشير: رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له: رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، قال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحًا دائمًا، فقلت: في أي الدرجات أنت؟ فقال: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام: أي الأعمال أفضل عندكم؟ فقال: الرضا وقصر الأمل. وقال يزيد بن مذعور: رأيت الأوزاعي في المنام فقلت: يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال: ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين. قال: وكان يزيد شيخًا كبيرًا، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه. وقال ابن عيينة: رأيت أخي في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. وقال علي الطلحي: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت: من أنت؟ فقالت: حوراء، فقلت زَوجيني نفسك، قالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني، قلت: وما مهرك؟ قالت: حبس نفسك عن آفاتها. وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: رأيت زبيدة في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، فقلت لها: بما أنفقت في طريق مكة؟ قالت: أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي. ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت أوّل قدمي على الصراط والثاني في الجنة. وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيت فيما يرى النائم جارية، ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورًا، فقلت لها: مماذا ضوء وجهك؟ قالت: تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها؟ قلت: نعم، قالت: أخذت دمعك فمسحت به وجهي، فمن ثم ضوء وجهي كما ترى.

وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل. ورئيت زبيدة في المنام فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي بهذه الكلمات الأربع: لا إله إلا الله أفني بها عمري، لا إله

إلا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي، لا إله إلا الله ألقى بها ربي. ورئي بشر في المنام فقيل له: ما فعل الله بك: قال: رحمني ربي عز وجل وقال: يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف. ورئي أبو سليمان في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم إلي. وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شابًا لم أر أحسن منه فقلت له: من أنت؟ قال: التقوى قلت: فأين تسكن؟ قال: كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال: فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة. وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وثب عليّ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها، فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب. وقال المسوحي: رأيت إبليس في النوم يمشي عريانًا فقلت: ألا تستحي من الناس فقال: بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية. وقال أبو سعيد الخراز: كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي ﷺ جاءني متكئًا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فجاء فوقف علي وأنا أقول شيئًا من الأصوات وأدق في صدري، فقال: شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم كأن في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات :٦١] فقلت له: أوصني، قال: أقلل من معرفة الناس، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال: رأيت سفيان الثوري فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي كفاحًا فقال لي ... هنيئًا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قوّامًا إذا أظلم الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته ... وزرني فإني منك غير بعيد

ورئي الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست، فلما رأى يأسي تغمدني برحمته. ورئي مجنون بني عامر بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. ورئي الثوري في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، فقيل له: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه في كل يوم مرتين. ورئي بعضهم فسئل عن حاله فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

ورئي مالك بن أنس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحي الذي لا يموت. ورئي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة، وكأن مناديًا ينادي ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض. ورئي الجاحظ فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

ولا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانًا فقال: ألا تستحي من الناس؟ فقال: وهؤلاء ناس الناس أقوام

في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي قال الجنيد: فلما انتبهت عدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون، فلما رأوني قالوا لا يغرّنك حديث الخبيث. ورئي النصر آباذي بمكة بعد وفاته في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت: يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت: لا يا ذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي. ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئًا فيحال بيني وبينك، فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثًا لا رجعة لي عليها حتى ألقاك. وقيل: رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها. فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وقال: قل لأيوب: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال بعضهم: رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نورًا، وملائكة نزولاً وملائكة صعودًا؛ فقلت: أي ليلة هذه؟ فقالوا: ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه. وقال أبو سعيد الشحام: رأيت سهلاً الصعلوكي في المنام فقلت: أيها الشيخ قال: دع التشييخ، قلت: تلك الأحوال التي شاهدتها، فقال: لم تغن عنا فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز. وقال أبو بكر الرشيدي: رأيت محمدًا الطوسي المعلم- في النوم- فقال لي: قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى   فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال: فانتبهت فذكرت ذلك له فقال: كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة. وقال ابن راشد: رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ بخ ذاك: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية: وقال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب. ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن مناديًا ينادي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه. وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي: رأيت في منامي رجلاً آدم طوالاً والناس يتبعونه فقلت: من هذا؟ قالوا: أويس القرني، فأتيته فقلت: أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله، فأقبل عليّ وقال: اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركني.

وقال أبو بكر بن أبي مريم: رأيت ورقاء بن بشر الخضرمي فقلت: ما فعلت يا ورقاء؟ قال: نجوت بعد كل جهد، قلت: فأي الأعمال وجدتموها أفضل، قال: البكاء من خشية الله. وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها: يا بنية أخبريني عن الآخرة؟ قالت: يا أبت قدمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إليّ من الدنيا وما فيها. وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت

إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت: (يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين).

وقال موسى بن حماد: رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت: يا أبا عبد الله بم نلت هذا؟ فقال: بالورع، قلت: فما بال علي بن عاصم؟ قال: ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب. ورأى رجل من التابعين النبي ﷺ في المنام فقال يا رسول الله عظني، قال: نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له.

وقال الشافعي رحمة الله عليه: دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن إدريس قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها. فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقرّبة إلى الله زلفى، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أو في النار، والحمد لله حمد الشاكرين.

الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله. وصفة طول يوم القيامة. وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها. وصفة المساءلة عن الذنوب. وصفة الميزان، وصفة الخصماء ورد المظالم، وصفة الصراط، وصفة الشفاعة. وصفة الحوض. وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها. وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان. وصفة النظر إلى وجه الله تعالى. وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى.

صفة نفخة الصور:

قد عرفت فيما سبق تأثير أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبًا عليه. وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط مع دقته وحدّته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بدّ لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم

واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبر: صدقت، ثم مدّ يديه لتناوله؛ كان مصدقًا بلسانه ومكذبًا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. وقد قال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَيَقُولُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَنْ يَعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي» (١)، وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعًا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس :٧٧] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝﴾ [القيامة :٣٦-٣٩] ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقوِّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار، وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة. فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرًا وجهك مغبرًا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتًا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافًا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر. كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر :٦٨] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾ [المدثر :٨-١٠] وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٤٨-٥٢] فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرًا بأن يتقي فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض. يعني يموتون بها. إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ وَحَنى الجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالأذُنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ» (٢).

---

(١) صحيح: حديث «قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني» ... الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، .

(٢) صحيح: حديث «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ: «إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران» وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه.

قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدّة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر :٦٨] على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله ﷺ: «حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى فِيهِ وَقَدَّمَ رِجْلاً وَأَخَّرَ أُخْرَى مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ ألا فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ» (١)، فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفًا من هذه الصعقة، وانتظارًا لما يقضي عليه من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم. بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطؤون بالأقدام مثل الذرّة، وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن حشرتهم شدّة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير :٥] ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوّها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقًا لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم :٦٨] فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك.

صفة أرض المحشر وأهله:

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلاً إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها. بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرًا، فسبحان من جمع الخلائق من اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة، قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصِ النَّقِي لَيْسَ فِيها مَعْلَمٌ لأَحَدٍ» (٢).

(١) **صحيح**: حديث «حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى». لم أجده هكذا بل قد ورد: أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر» قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ «ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان» وإسنادها جيد، [صحيح الجامع: ٤٥٩٢].

(٢) **صحيح**: حديث «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد». متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخاري قوله «ليس فيها معلم لأحد» فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه.

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع. والنقي: هو النقي عن القشر والنخالة. ومعلم: أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [ابراهيم:٤٨]. قال ابن عباس: يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدّ مدّ الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها. فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدّته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها. فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدّتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة. قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذانِ» قالت سودة زوج النبي راوية الحديث قلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «شغل الناس عن ذلك بهم: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] » [1] فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات. كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم، قال أبو هريرة رضي الله عنه:

قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ، فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِم قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ» [2]، في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضًا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكارًا لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريًا مكشوفًا ذليلاً مدحورًا متحيرًا مبهوتًا منتظرًا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق:

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين

---

(١) **صحيح**: حديث «يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» قالت سودة - زوج النبي ﷺ راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأتاه. أخرجه الثعلبي والبغوي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة «واسوأتاه» ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة «واسوأتاه».

(٢) **صحيح**: حديث أبي هريرة «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: ركبانا ومشاة» رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

السبع من ملك وجنّ وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عما كانت عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين. ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحرّ الشمس قد صهرته بحرها واشتدّ كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضًا لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه. قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيب أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» [(١)]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي سَبْعِينَ بَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ وَيَبْلُغَ آذقنهم» [(٢)]، كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: «قيامًا شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب» [(٣)]، وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ. وَأشار بيده فألجمها فاه. وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ العَرَقُ، وَضرب بيده على رأسه هكذا» [(٤)] فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم، وفيهم من ينادي فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابًا ولا عقابًا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق؟.

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله؛ من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهي عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرًا وأقصر زمانًا من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدّته طويلة مدته.

---

(١) **صحيح**: حديث ابن عمر «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». متفق عليه.

(٢) **صحيح**: حديث أبي هريرة «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعا». أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف، .

(٣) حديث «قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب». أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدي لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه.

(٤) **صحيح**: حديث عقبة بن عامر «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه». رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، [صحيح الترغيب: ٣٥٨٨].

صفة طول يوم القيامة:

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم. قال كعب وقتادة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبد الله بن عمر، تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «كَيْفَ بِكُمْ إذا جَمَعَكُم اللَّهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ»[1]. وقال الحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا واحترقت أجوافهم جوعًا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضًا في طلب من يكرّم على مولاه ليشفع في حقهم، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال: دعوني نفسي نفسي؟ شغلني أمري عن أمر غيري. واعتذر كل واحد بشدّة غضب الله تعالى وقال: قد غضب اليوم ربنا غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] فتأمل في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر.

واعلم أنّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة، قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى المُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ يُصَلِّيها فِي الدُّنْيا»[2]، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحًا لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلًا لتتخلص من يوم مقداره خمسون ألفًا لكان ربحك كثيرًا وتعبك يسيرًا.

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه:

فاستعدّ يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد

---

(١) ضعيف: حديث ابن عمر: تلا هذه الآية ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ثم قال: «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». قلت: إنما هو عبد الله بن عمر، ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم روايا غير ابن وهب. ولهم غير عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري، والثلاثة الآخرون شاميُّون، [ضعيف الجامع: ٤٢٩٢].

(٢) ضعيف: حديث: سئل عن طول ذلك اليوم فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا». أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد «يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب» ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ «إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة»، [ضعيف الترغيب: ٢٠٨٥].

كوّرت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوّجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدّت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم ترج الأرض فيه رجًا وتبس الجبال بسًا فكانت هباء منبثًا، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفًا فتترك قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين ﷺ إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله قال: «شَيَّبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتُها»[1]، وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت، فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرّك به اللسان، ولو كنت متفكرًا فيما تقرؤه لكنت جديرًا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين ﷺ، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن، فالقيامة أحد ما ذكر فيه. وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها.

ونحن الآن نجمع لك أساميها. وهي: يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم المنافسة، ويوم الزلزلة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث،

---

(١) حديث «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم.

ويوم الفتح، ويوم الخزي، ويوم عظيم، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرجة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم الفزع، ويوم المنتهى، ويوم الجزع، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم الساعة، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلى فيه السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئًا، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئًا، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا، ويوم يسحبون في النار على وجوههم، ويوم تقلب وجوههم في النار، ويوم لا يجزي والد عن ولده، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ويوم لا مرد له من الله، يوم هم بارزون، ويوم هم على النار يفتنون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. يوم ترد فيه المعاذير وتبلى فيه السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار. يوم تخشع فيه الأبصار، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات، وتبرز الخفيات، وتظهر الخطيئات، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير ويسكر الكبير، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين، وبرزت الجحيم وأغلي الحميم، وزفرت النار ويئس الكفار، وسعرت النيران وتغيرت الألوان، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان.

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين، يرسل لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء :١-٣] ثم يعرّفنا قرب القيامة فيقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر :١]، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج :٦-٧]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب :٦٣] ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة:

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهًا من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير. فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا مَا بَيْنَ شُفْرَيْ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عامٍ»[1]، فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلاً هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض،

(١) حديث «إن لله عز وجل ملكا ما بين شفري عينيه مسيرة مائة عام». لم أره بهذا اللفظ.

وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده. وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفًا من أن يكونوا هم المأخوذين. فهذه حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة: أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا: سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفًا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم.

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف :٦-٧] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر :٩٢-٩٣] فيبدأ سبحانه بالأنبياء: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة :١٠٩] فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة: إذ يقال لهم: ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون، فيقولون من شدة الهيبة. لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت، فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة :١١٦] فيبقى متشحطًا تحت هيبة هذا السؤال سنين، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدًا واحدًا يا فلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض.

وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار. ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق.

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر :٦٩] وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك: يا جبريل ائتني بالنار، فيجيء لها جبريل ويقول: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك. فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبًا على من عصى الله تعالى وخالف أمره، فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعًا ورعبًا فتساقطوا جثيًا على الركب، وولوا مدبرين: يَوْمَ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية :٢٨] وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون نفسي نفسي. فبينما هم كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين.

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم، فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة، ففرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظرًا لأمره، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهًا عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه، قال أبو هريرة قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ.» قالوا: لا، قال: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ» قالوا: لا، قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ؛ فَيَلْقَى العَبْدَ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ العَبْدُ: بَلَى؛ فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ: فَأَنَا أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي» (١).

فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهًا، فيقول لك: ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته، ألم أمهل لك من العمر ففيماذا أفنيته، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت. فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساوئك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك. قال أنس رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ» قال: «يَقُولُ بَلَى» قال: «فيقول: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إلاَّ شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُودًا» قال: «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي» قال: «فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلامِ فَيَقُولُ لأَعْضَائِهِ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ» (٢). فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره.

سأل ابن عمر رجل فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ، ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإني أغفرها لَكَ اليَوْمَ» (٣)، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَتَرَ عَلَى مؤمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٤) فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظلم، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب

---

(١) **صحيح**: حديث أبي هريرة: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب» . . . متفق عليه دون قوله «فيلقى العبد . . . إلخ» فانفرد بها مسلم، .

(٢) **صحيح**: حديث أنس «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال «من مخاطبة العبد ربه». رواه مسلم.

(٣) **صحيح**: حديث: سأل ابن عمر رجل فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟». رواه مسلم.

(٤) حديث «من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة». تقدم.

وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدم ادن مني، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساوئها؟ فكم لك من خجل وجبن؟ وكم لك من حصر وعجز؟ فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهًا إذ يقول: يا عبد أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي، استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري، ألم أنعم عليك: فماذا غرّك بي أظننت أني لا أراك وأنك لا تلقاني.

قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلا تَرْجمَانٌ»[(١)]. وقال رسول الله ﷺ: «لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فيقول لَهُ أَلَمْ أُنْعِم عَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إلَيْكَ رَسُولاً؟ فَيَقُولُ: بَلَى: ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إلاَّ النَّارَ ثم يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلا يَرَى إلاَّ النَّار، فَلْيَتَقِ أَحَدُكُمْ النَّار وَلَوْ بِشق تَمْرَةٍ فَإِذَا لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[(٢)]، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول: يا ابن آدم ما غرّك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين، يا ابن آدم ألم أكن رقيبًا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ألم أكن رقيبًا على أذنيك، وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه، وقال مجاهد: لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه؟ فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأوّلون والآخرون، وإما أن يقال للملائكة: خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرًا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك.

صفة الميزان:

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

فرقة ليس لهم حسنة: فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوي عليهم ويلقيهم في النار، فتبتلعهم النار وينادي عليهم شقاوة لا سعادة بعدها.

وقسم آخر: لا سيئة لهم فينادي مناد ليقم الحمادون لله على كل حال؛ فيقومون. ويسرحون إلى

---

(١) **صحيح**: حديث «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين». متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ «إلا سيكلمه» الحديث.

(٢) **صحيح**: حديث «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان». أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.

الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى. وينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها.

ويبقى قسم ثالث: وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق.

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه فقال: «ما يُبْكِيكِ يا عَائِشَةُ؟» قالت: ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَدًا لا يَذْكُرُ إلاَّ نَفْسه: إِذَا وُضِعَت المَوَازِينُ وَوُزِنَت الأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ. وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَبِيَمِينِهِ يَأخُذُ كِتَابه أَوْ بِشِمَالِهِ، وَعِنْدَ الصِّراطِ» [(١)].

وعن أنس: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا. وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار». قال رسول الله في يوم القيامة: «إِنَّهُ يَوْمَ يُنَادِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَيَقُولُ لَه: قُمْ يا آدَمُ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَكَمْ بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ» فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه قال: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتا مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلاَّ كَثَرَتَاهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ» قالوا: وما هما يا رسول الله؟ قال: «يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ». قال: فسري عن القوم فقال: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ» [(٢)].

صفة الخصماء ورد المظالم:

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۞﴾ [القارعة: ٦-١١].

واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله

---

(١) ضعيف: حديث الحسن: أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت. وفيه فبكت فقال: «ما يبكيك يا عائشة» أخرجه أبو داود من رواية الحسن: أنها ذكرت النار فبكت فقال «ما يبكيك» دون كون رأسه ﷺ في حجرها وأنه نعس وإسناده جيد.

(٢) حديث «يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون». متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم.

وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا ويتدارك ما فرط من تقصيره من فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، وبطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلببه، هذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول عاملتني فغششتني، وهذا يقول بايعتني فغبنتني وأخفيت عني عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول رأيتني محتاجًا وكنت غنيًا فما أطعمتني، وهذا يقول وجدتني مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم وما راعيتني. فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم. حتى لم يبقى في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم. إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾[غافر:١٧] فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[إبراهيم:٤٢-٤٤] الآية.

فما أشدّ فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقًا أو تظهر عذرًا؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضًا عن حقوقهم. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَنِ المُفْلِس» قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «المُفْلِسُ منْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هذَا وَقَذَفَ هذا وَأَكَلَ مَالَ هذا وَسَفَكَ دَمَ هذا وَضَرَبَ هذا فَيُعْطى هذا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهذا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيتْ حَسَنَاته قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١) فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء؟ فقد روى أبو ذرّ: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أَبا ذَرّ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ؟» قلت: لا،

(١) حديث أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ «هل تدرون من المفلس؟» قلنا: المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع» .... الحديث تقدم.

قال: «وَلَكِنَّ اللَّه يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ» (١).

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام :٣٨] إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة. البهائم والدواب والطير وكل شيء. فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول كوني ترابًا، فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا. فكنت أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك. وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتدّ بسبب الكف عنها عناؤك فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الأَصْنَامُ بِأَرْضِ العَرَبِ وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذلِكَ بِالمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ المُوبِقَاتُ، فَاتَّقُوا الظُّلْمَ ما اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ العَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيُنْجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ رَبِّ إِنَّ فُلانًا ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فيقولُ امْحُ مِنْ حسناتِهِ فما يزالُ كَذلِكَ حَتَّى لا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ، وإنَّ مَثَلَ ذلِكَ مَثَلُ سفرٍ نَزَلُوا بِفلاةٍ مِنَ الأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ القَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ وَصَنَعُوا ما أَرَادُوا» (٢)، وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر :٣٠-٣١] قال الزبير: يا رسول الله أيكرّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال: «نَعَمْ لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» (٣). قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. فأعظم بشدّة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللَّهُ العِبَادَ عُرَاةً غُبرًا بهْمًا» قال: قلنا: ما بهمًا؟ قال «ليس معهم شيء، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه؛ حتى اللطمة» قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عز وجل عراة غبرًا بهمًا فقال: «بِالْحَسَنَاتِ

---

(١) **صحيح**: حديث «يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان» قلت: لا، قال «ولكن ربك يدري وسيقضي بينهما». أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر، [السلسلة الصحيحة: ١٥٨٨].

(٢) **صحيح**: حديث ابن مسعود «إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات». رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرا على آخره «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا . . . الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»، .

(٣) **صحيح الأسناد**: حديث: لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١] قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا. أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح، [سنن الترمذي: ٣٢٣٦].

وَالسَّيِّئَاتِ»[(١)] فاتقوا الله عباد الله الصالحين، ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الـذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم، كما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجُلاَن مِنْ أُمَّتِي جَثَيا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَةِ فَقَالَ أَحَدهُمَا: يا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْطِ أَخاكَ مَظْلَمَتَهُ. قالَ: يا رَبِّ لم يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شيءٌ، فقال الله تعالى لِلطَّالب: كَيْفَ تصنعُ وَلَمْ يبقَ مِنْ حسناته شَيْءٌ. قالَ: يا ربِّ يَتَحَمَّل عَنِي مِنْ أَوْزَارِي» قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال:

«إنَّ ذلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أنْ يُحمَل عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ»، قال: «فقالَ اللَّهُ للطالبِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فانْظُرْ في الجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقالَ: يا ربِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مرتفعة وقصورًا مِنْ ذهبٍ مُكَلَّلَةً باللؤلؤ لأيِّ نَبِي هذا أو لأيِّ صدِّيقٍ هذا؟ أو لأيِّ شهيدٍ هذا؟ قال لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ، قالَ: يا ربِّ وَمَنْ يَمْلِكُ الثَّمَنَ؟ قالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قالَ: وَما هُوَ؟ قال عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ، قال: يا رَبِّ إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قال اللَّهُ تعالى: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلهُ الجَنَّةَ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِح بَيْنَ المُؤْمِنِينَ»[(٢)]، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد: كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار قلبك سرورًا وفرحًا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعًا رأسك خاليًا عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأوّلين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا أفترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي

---

(١) حسن لغيره: حديث أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يحشر الله العباد عراة غبرا بهما» قلنا: ما بهما؟ قال «ليس معهم شيء». قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله بن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال: «غرلا» مكان «غبرا»، [صحيح الترغيب: ٣٦٠٨].

(٢) حديث أنس: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين» . . . الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون: وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادي بالويل والثبور، وهم يقولون لك: لا تدع اليوم ثبورًا واحدًا وادع ثبورًا كثيرًا وتنادي الملائكة ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساوئه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبًا للمكانة في قلوبهم أو خوفًا من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملإ العظيم مع التعرّض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط.

صفة الصراط:

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] وفي قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٣-٢٤] فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أوّل قدم من الصراط وتردى. فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك، تلتفت يمينًا وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول: «يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثبور وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قدّمت لحياتي يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانًا خليلاً يا ليتني كنت ترابًا يا ليتني كنت نسيًا منسيًّا يا ليت أمي لم تلدني وعند ذلك تختطفك النيران. والعياذ بالله. وينادي المنادي: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة، فكيف ترى الآن عقلك وهذه

الأخطار بين يديك؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم، وإن كنت به مؤمنًا وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاونًا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه. وإن سلمت. فناهيك به هولاً وفزعًا ورعبًا قال رسول الله ﷺ: «يُضْرَبُ الصِّرَاط بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ، ولا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إلاَّ الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يومئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّم كلاليبُ مثل شَوكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قالوا: نَعَمْ يا رسول الله. قال: «فَإِنَّها مثلُ شوكِ السَّعْدانِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يعلمُ قدرَ عظمها إلاَّ اللَّهُ تعالى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بأعمالهمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يوبَقُ بِعَمَلِهِ ومنهمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو» (١). وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكلاليبُ وَخَطاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يمينًا وشِمالاً وعلى جَنْبَتَيْهِ ملائكةٌ يقولونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ البَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ المُجْرى، ومنهم مَنْ يسعى سَعيًا، ومنهم مَنْ يمشي مَشْيًا، ومنهم مَنْ يَحْبُو حَبْوًا، ومنهم مَنْ يزحف زحفًا، فأمَّا أهلُ النارِ الذينَ هُمْ أَهْلُها فلا يموتون ولا يَحْيَوْنَ، وأمّا ناسٌ فَيُؤْخَذُونَ بِذنوبٍ وخطايا فَيَحْتَرِقُونَ فَيكونونَ فَحْمًا ثُمَّ يُؤْذَنُ في الشَّفَاعَةِ» (٢)، وذكر إلى آخر الحديث.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللَّهُ الأوَّلِينَ وَالآخرِينَ لميقاتِ يوم مَعلوم قيامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أبصارُهُمْ إلَى السَّمَاءِ ينتظرونَ فَصْلَ القَضَاءِ» وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال: «ثم يقولُ للمؤمنينَ ارْفَعُوا رؤوسَكُمْ فيرفعونَ رؤوسَهُمْ فيعطيهم نُورَهُمْ على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فمنهم مَنْ يُعْطى نَورَهُ مِثْلَ الجَبَلِ العظيم يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، ومنهم مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذلِكَ، ومنهم مَنْ يُعطَى نورَهُ مثلَ النَّخْلَةِ، ومنهم مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذلِكَ، حتى يكون آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُورَهُ على إبهام قَدَمِهِ فيضيءُ مَرَّةً ويخبو مرةً فإذا أضاء قَدمَ قَدَمَهُ فَمَشَى وإذا أظْلَم قَامَ» ثم ذكر مرورهم على الصراط على قَدْرِ نُورِهِمْ: فمنهمْ من يَمُرُّ كَطَرْفِ العَيْنِ، ومنهم مَنْ يَمرُّ كالبرقِ، ومنهمْ من يَمُرُّ كالسَّحَابِ، ومنهمْ مَنْ يَمُرُّ كانقضاضِ الكَوَاكِبِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدِّ الفَرَسِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ حتى يَمُرَّ الَّذِي أعطيَ نُورَهُ على إبهامَ قدمهِ يَحْبُو على وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ ورجليهِ تجرُّ مِنْهُ يَدٌ وَتعلقُ أخرى وتعلقُ رجلٌ وتجرُّ أخرى وتصيبُ جوانبهُ النَّارُ» قال: «فلا يَزَالُ كذلِكَ حتى يخلصَ فإذا خَلَصَ وَقَفَ عليها ثمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ ما لَمْ يُعْطِ أَحَدًا إذ نَجَّانِي مِنها بَعْدَ إذْ رَأَيْتُها فَينْطَلِقُ بِهِ إلى غَدِيرٍ عِنْدَ بابِ الجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ» (٣).

وقال أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ

---

(١) صحيح: حديث «ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز». متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل.

(٢) حديث أبي سعيد «يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف». متفق عليه مع اختلاف ألفاظ.

(٣) حديث ابن مسعود «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين. بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا.

المَلائِكَةَ ينجُونَ المؤمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَإنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإنِّي لأَقُولُ يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَالزَّالُّونَ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ»(١) .

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطوّل فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة. ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فما ذا من الخوف في شيء؟ بل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه. فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته. وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم: استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم. وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم. فالشيطان يضحك من استعاذتهم. كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدّة بنيانه وإحكام أركانه؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغني عنه ذلك من السبع. وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: «لا إله إلا الله» صادقًا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبًّا لرسول الله ﷺ حريصًا على تعظيم سننه ومتشوّقًا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركًا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة.

صفة الشفاعة:

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصدّيقين، بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصًا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة، وذلك بأن لا تحقر آدميًا أصلاً فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله، ولا تستصغر معصية أصلاً فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه، ولا تستحقر أصلاً طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه. ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة: قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]، روى عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:١١٨] ثم رفع يديه وقال: «أمتي أمتي» ثم بكى

(١) حديث أنس «الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة». الحديث أخرجه البيهقي في الشعب، وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعا «الصراط كحد الشعرة - أو كحد السيف» قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة.

فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله فأخبره. والله أعلم به. فقال: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك [١]. وقال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرَابُها طَهُورًا فأيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكُلُّ نَبِيٍ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً» [٢]، وقال ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ كنتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ» وقال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عنهُ وَأنا أَوَّلُ مُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ تَحْتَهُ آدَم فَمَنْ دُونَهُ» [٣]، وقال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَأُرِيدُ أن أختبئ دَعْوَتِي شفاعةً لأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ» [٤]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ منابرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَليها، وَيَبْقَى مِنْبَرِي لا أَجْلِسُ عليه قائِمًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي منتصبًا مخافةَ أن يبعث بي إلى الجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بَعْدِي، فَأَقولُ: يا ربِّ أُمَّتِي فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يا محمدُ وما تريدُ أنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأقولُ: يا رَبِّ عَجِّل حِسَابهُمْ فما أزالُ أشفعُ حتى أُعطَى صِكاكًا برجال قد بُعِثَ بِهِمْ إلى النَّارِ وحتَّى إنَّ مالكًا خازنَ النَّارِ يقولُ: يا محمدُ ما تَرَكت النَّار لغضب ربك في أمتك من بَقِيَّةٍ» [٥]. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنِّي لأَشْفَعُ يوم القِيَامَةِ لأكثرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ» [٦].

وقال أبو هريرة: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد المرسلين يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله

---

(١) **صحيح**: حديث عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ ثم رفع يديه، ثم قال «أمتي أمتي» ثم بكى». قلت ليس هو من حديث عمرو ابن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ، .

(٢) **صحيح**: حديث «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي». متفق عليه من حديث جابر «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح.

(٣) **صحيح**: حديث «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» . . . الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) **صحيح**: حديث «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ دعوتي: شفاعة لأمتي يوم القيامة». متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة، .

(٥) **ضعيف**: حديث ابن عباس «ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا». أخرجه الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت والبناني ضعيف، [الضعيفة: ٥٠١٣].

(٦) حديث «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر». أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن.

تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدًا شكورًا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب؛ فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كما بَيْنَ مَكَةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى» (١).

وفي حديث آخر: هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم. فهذه شفاعة رسول الله ﷺ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضًا حتى قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رجلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ» (٢) وقال ﷺ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يا فلانُ فاشفعْ فيقوم الرَّجلُ فيشفع لِلْقَبِيلَةِ ولِأَهْلِ البيتِ وَلِلرَّجُلِ

---

(١) صحيح: حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال «أنا سيد المرسلين» . . . الحديث بطوله في الشفاعة، قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم.

(٢) صحيح: حديث: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر». رويناه في جزء أبي عمر بن السماك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال «مثل أحد الحيين ربيعة ومضر» وفيه: فكأن المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجدعاء «يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم» قالوا: سواك قال «سواي» قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا، [الصحيحة: ٢١٧٨].

وَالرَّجُلَيْنِ على قدْرِ عَمَلِهِ» (١).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يشرفُ يومَ القيامَةِ على أَهْلِ النَّارِ فيناديهِ رجلٌ مِنْ أَهْلِ النّارِ ويقولُ: يا فلانُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لا واللَّهِ ما أعرفكَ مَنْ أنتَ؟ فيقولُ: أنا الَّذِي مَرَرْتَ بِي في الدُّنيا فاسْتَسْقَيْتَنِي شربةَ ماءٍ فَسَقَيْتُكَ، قال: قد عَرَفْتُ، قال: فاشْفَعْ لي بِها عند رَبِّكَ فيسألُ اللَّهَ تعالى ذكره ويقولُ: إنِّي أَشْرَفْتُ على أهْلِ النَّارِ فَنادانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِها فقالَ: هل تعرفني؟ فقلتُ: لا مَنْ أنتَ؟ فقالَ: أنا الذي استسقيتني في الدُّنيا فسقيتكَ فاشفعْ لي عندَ رَبِّكَ فَشَفعنِي فيهِ، فَيُشَفِّعُهُ اللَّهُ فيه فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ» (٢)، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خروجًا إذا بُعِثُوا وَأَنا خَطِيبُهُمْ إذا وَفَدُوا وأنا مُبَشِّرُهُمْ إذا يَئِسُوا، لواءُ الحَمْدِ يومئذٍ بِيَدِي وأنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي ولا فَخْرَ» (٣). وقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أقومُ بينَ يَدَيْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ ثم أقومُ عن يمينِ العَرْشِ ليسَ أَحَدٌ مِنَ الخلائِقِ يقُومُ ذلك المقامَ غَيْرِي» (٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجبًا إنّ الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً وقال آخر: ما ذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليمًا وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم ﷺ فسلم وقال: «قَدْ سَمِعْتُ كلامَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ إنَّ إبراهيمَ خليلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذلِكَ، وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ وَهُوَ كَذلِكَ، وَعِيسى روحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وهو كذلك، وآدَمَ اصْطَفَاهُ اللَّهُ تعالى وهو كذلك، ألا وأنا حَبيبُ الله ولا فَخْرَ، وأنا حامِلُ لواءِ الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أَوَّلُ شافع وأول مُشَفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ، وأنا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حلقَ الجَنَّةِ فيفتحُ اللَّهُ لِي فأدخلها ومعي فقراء المُؤمِنِينَ ولَا فَخْرَ، وأنا أكرمُ الأَوَّلينَ والآخِرِينَ وَلا فَخْرَ» (٥).

صفة الحوض:

اعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه، فإن من صفاته أنّ من شرب منه لم يظمأ

---

(١) ضعيف: حديث «يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «أن من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة... الحديث» وقال حسن وللبزار من حديث أنس «أن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة» [ضعيف الجامع: ٢٠٠٢].

(٢) ضعيف جدًا: حديث أنس «أن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ...». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف، [ضعيف الترغيب].

(٣) ضعيف: حديث أنس «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا». أخرجه الترمذي. وقال حسن غريب، [ضعيف الجامع: ١٣٠٩].

(٤) ضعيف: حديث «إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح، [ضعيف الجامع: ١٣١١].

(٥) ضعيف: حديث ابن عباس: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا. رواه الترمذي وقال غريب، [ضعيف الترمذي: ٣٦١٦].

أبدًا. قال أنس: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا فقالوا له: يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال: «آية أنزلت علي آنفًا» وقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ①﴾ [الكوثر: ١] » حتى ختمها ثم قال: «هَلْ تَدْرُونَ ما الكَوْثَرُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ في الجنةِ عليه خَيْرٌ كَثيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يومَ القيامةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماءِ» (١)

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَما أَنا أَسيرُ في الجَنَّةِ إذا بنهرٍ حافَّتَاهُ قِبابُ اللؤلؤِ المجوفِ قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكَوْثر الذي أعطاكَ رَبكَ فضربَ الملك بيدهِ فإذا طِينَتُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ» (٢)، وقال: كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بَيْنَ لابَتَيْ حَوْضِي مِثْلِ ما بَيْنَ المَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أو مِثْلُ ما بينَ المَدِينة وعُمَانَ» (٣).

وروى ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ①﴾ قال رسول الله ﷺ: «هُوَ نَهرٌ فِي الجَنَّةِ حافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِن اللَّبَنِ وأحلَى مِنَ العَسَلِ وأطيبُ رِيحًا مِنَ المِسْكِ يَجْرِي على جَنَادِلِ اللؤلؤ وَالمَرْجَانِ» (٤).

وقال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ حَوْضِي ما بينَ عدن إلى عمانَ البلقان ماؤهُ أَشَدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ وأكوابهُ عَدَدُ نجومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ منهُ شربةً لم يَظمَأْ بعدها أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ» (٥). فقال عمر بن الخطاب: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هُمُ الشُّعْثُ رؤوسًا الدُّنُسُ ثِيابًا الَّذِينَ لا يَنْكحُونَ المُتَنَعِّمَاتِ ولا تُفْتَحُ لَهُمْ أبوابُ السُّدَدِ»، فقال عمر بن عبد العزيز: والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ.

وعن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ وَكَوَاكِبِها فِي الليلةِ المظلمةِ المُضْحِيَةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ. آخِر ما عَلَيْهِ يشخبُ

---

(١) صحيح: حديث أنس: أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال «آية نزلت علي آنفا» وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ①﴾ [الكوثر: ١] حتى ختمها». رواه مسلم.

(٢) صحيح: حديث أنس «بينما أن أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. ورواه البخاري من قول أنس: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء... الحديث. وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي ﷺ.

(٣) صحيح: حديث أنس «ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان». رواه مسلم، .

(٤) صحيح: حديث ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ①﴾ قال رسول الله ﷺ «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب». أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف.

(٥) صحيح: حديث ثوبان: قال رسول الله ﷺ: «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان». أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه، [صحيح الترغيب: ٣١٨٥].

فيهِ ميزابانِ من الجنةِ عَرْضُه مثلُ طُولِهِ ما بينَ عُمَانَ وَأَيْلَةَ، ماؤهُ أشدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ» [(١)] .

وعن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ لِكُلِّ نَبِي حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وإِنِّي لأَرْجُو أن أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً» [(٢)] ، فهذا رجاء رسول الله ﷺ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكون متمنيًا ومغترًا وهو يظن أنه راج، فإنّ الراجي للحصاد من بث البذر ونقّى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى. نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإنّ الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان :٣٣] .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها:

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم :٧١-٧٢] فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك. فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب. وخرج المنادي من الزبانية قائلًا: أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان :٤٩] فأسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرّهم الجحيم.

الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤوا فيها

---

(١) حديث أبي ذر: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها». رواه مسلم.

(٢) صحيح: حديث سمرة «إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة». أخرجه الترمذي وقال: غريب. قال: روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبيﷺ مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح، [صحيح الترمذي].

ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضائقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل. ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها، قد عرّيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سوّدت وجوههم أشد سوادًا من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم. وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم.

وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضًا في أودية جهنم وشعابها، فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لا يَنْتَهِي الكافِرُ وَالمُنَافِقُ حَتَّى يُواقع ذلك كُلَّهُ» (١)، وقال علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنْ جُبِّ الحزنِ، أَوْ وَادِي الحزنِ» قيل: يا رسول الله وما وادي. أو جب الحزن؟ قال: «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوذُ مِنهُ جهنمُ كُلَّ يوم سبعين مرَّةً أَعَدَّهُ اللَّهُ تعالى لِلْقُرَّاءِ المُرَائِينَ» (٢)، فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها. وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض: الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حدّ لعمقها كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها. قال أبو هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ منذُ سبعينَ عامًا الآنَ انْتَهى إلى قَعْرِها» (٣).

---

(١) حديث «إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب». لم أجده هكذا بجملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب.

(٢) حديث علي «تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادي الحزن». رواه ابن عدي بلفظ «وادي الحزن» وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «جب الحزن» وضعفه ابن عدي وتقدم في ذم الجاه والرياء.

(٣) صحيح: حديث أبي هريرة: «كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة». رواه مسلم، .

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذابًا لـو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه. قال رسول الله ﷺ: «إنْ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نَار يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ» (١). فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه. ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به. ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه. وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا» (٢) بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال: «أَمَرَ اللَّهُ تعالى أنْ يُوقَدَ على النَّارِ ألفَ عام حتى احمرتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْها ألفَ عام حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة» (٣)، وقال ﷺ: «اشْتَكَت النَّارُ إلى رَبِّها فقالت: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بعْضًا فَأَذِنْ لها في نَفَسَيْنِ نَفَس فِي الشِّتاء وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ ما تَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّها وَأَشَد ما تَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِها» (٤).

وقال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت نعيمًا قط فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس ضرًا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له: هل رأيت ضرًا قط؟ فيقول: لا. وقال أبو هريرة: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا. وقد قال بعض العلماء في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحمًا على عظم إلا ألقته عند أعقابهم. ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق: قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ فِي الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلَ الأَرْضِ» (٥)، فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا.

---

(١) صحيح: حديث «إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه». متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) حديث «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا». ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس «وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد» وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف «وما وصلت إليكم» حتى أحسبه قال: «نضحت بالماء فتضيء عليكم».

(٣) حديث «أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت». تقدم.

(٤) صحيح: حديث «اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضا». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) ضعيف: حديث أبي سعيد الخدري «لو أن دلوا من غساق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض». أخرجه الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف، [ضعيف الجامع: ٤٨٠٣].

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝﴾ [الواقعة: ٥١-٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝﴾ [الصافات: ٦٤-٦٨] وقال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤-٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣] وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم»[(١)]، فكيف من يكون طعامه ذلك؟ وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «ارْغَبُوا فِيما رَغَّبَكُم اللَّهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا ما خَوَّفَكُم اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ، فَإِنَّهُ لَوْ كانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُم الَّتِي أنتمْ فيها طَيَّبَتْها لَكُمْ، وَلَوْ كَانَتْ قطرةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُم الَّتِي أنتم فيها خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ»[(٢)]، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوع حَتَّى يَعْدِلَ ما هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بالطَّعَام فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَغِيثُونَ بالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فيذكرون أنهم كما كانوا يُجيزُونَ الغُصَصَ في الدنيا بشرابٍ فَيَسْتَغِيثُونَ بشرابٍ فيرفع إليهم الحَميم بكلاليب الحَدِيدِ، فإذا دَنَتْ من وجوههم شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فإذا دَخَلَ الشَّرَابُ بُطُونَهُمْ قطعَ ما في بُطُونِهِمْ فيقولون ادْعُوا خَزَنَةَ جهنمَ، قال: فيدعون خزنة جهنم أن ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝﴾ [غافر: ٤٩-٥٠] قال: فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكًا فيدعونَ فَيَقُولُونَ يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قال: «فَيُجِيبهُمْ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ»[(٣)].

قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال: فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٧] قال: فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل. وقال أبو أمامة قال رسول الله في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧] قال: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فإذا أُدْنِيَ منهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ. فإذا شَرِبَهُ قَطَّعَ أمعاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ» يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ

---

(١) ضعيف: حديث ابن عباس «لو أن قطرة من الزقوم قطرت». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجه، [ضعيف الترمذي: ٢٥٨٥].

(٢) حديث أنس «ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم». لم أجد له إسنادا.

(٣) ضعيف: حديث أبي الدرداء «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام». أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي: والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله، [ضعيف الترغيب: ٢١٦٠].

كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف :٢٩] «فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم» (١).

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يطَوِّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهَازِمِهِ. يعني أشداقه. فَيَقُولُ أنا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ...﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية (٢) وقال الرسول ﷺ: «إنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلَ أَعْنَاقِ البُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَها أرْبعينَ خَريفًا، وإنَّ فيها لَعَقَارِبَ كالبِغَالِ المُوكَفَةِ يَلْسَعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتها أربعينَ خريفًا وَهذِهِ الحَيَّات وَالعَقَارِبُ إِنَّما تُسَلَّطُ على مَنْ سُلِّطَ عليهِ فِي الدُّنْيا البُخْلُ وَسُوءُ الخُلُقِ وَإيذاءُ النَّاسِ وَمَنْ وُقِيَ ذلِكَ وُقِيَ هذه الحَيَّاتِ فَلَمْ تَمْثُل لَهُ» (٣)، ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإنّ الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضًا حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي» قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وغِلَظُ جِلْدِهِ مسَيرَةُ ثَلاثٍ» (٤) وقال رسول الله ﷺ: «شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وجْهَهُ» (٥) وقال عليه السلام: «إِنَّ الكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فِي سِجِّين يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَوَاطَؤُهُ النَّاسُ» (٦) ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء :٥٦] قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا.

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أوّل إلقائهم في النار قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سبعونَ أَلْفَ زمامٍ مَعَ كُلِّ زمام سبعونَ أَلفَ مَلَكٍ» (٧)، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ البُكَاءُ فيبكُونَ حتى تنقطِعَ الدُّموعُ ثم يبكونَ الدَّمَ حتى يُرَى في وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيها السُّفُنُ لَجَرَتْ وما دام يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي

---

(١) ضعيف: حديث أبي أمامة في قوله تعالى ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧] قال «يقرب إليه فيتكرهه». أخرجه الترمذي وقال غريب، [ضعيف الترغيب: ٢١٥٥].

(٢) صحيح: حديث أبي هريرة: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر ونحوه، .

(٣) حسن: حديث «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا». أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء، [صحيح الترغيب: ٣٦٧٦].

(٤) صحيح: حديث أبي هريرة «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث». رواه مسلم، .

(٥) ضعيف: حديث «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب، [ضعيف الترغيب: ٢١٦٧].

(٦) ضعيف: حديث «إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس». أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لا يعرف، [الضعيفة: ١٩٨٦].

(٧) صحيح: حديث «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام». أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود .

البُكَاءِ وَالشَّهِيقِ وَالزَّفِيرِ وَالدَّعْوَةِ بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ فَلَهُمْ فِيهِ مُسْتَرَوحٌ وَلكِنَهُمْ يُمْنَعُونَ أيضًا مِنْ ذلِكَ» (١)، قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدًا يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيقول الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر :١٢] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم :٤٤] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم :٤٤] فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر :٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر :٣٧] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون :١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبدًا وذلك غاية شدّة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم :٢١] قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم :٢١]، وقال ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كأنه كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ويقالُ يا أهلَ الجَنَّةِ خلودٌ بلا مَوْتٍ ويا أهل النَّارِ خلودٌ بلا مَوْتٍ» (٢)، وعن الحسن قال: يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل. ورئي الحسن رضي الله عنه جالسًا في زاوية وهو يبكي فقيل له: لم تبكي؟ فقال: أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي.

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيامًا قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكدّرة منغصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أيامًا قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم. فقد قال رسول الله ﷺ: «يؤْتَى يومَ القِيَامَةِ بناسٍ مِنَ النَّارِ إِلَى الجَنَّةِ حَتَّى إذا دَنَوا مِنْها وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَها وَنَظَرُوا إلى قُصُورِها وإلى ما أَعَدَّ اللَّهُ لأَهْلِها فيهَا نُودُوا أنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْها لا نَصِيبَ لَهُمْ فِيها فَيَرْجِعُونَ بِحسرةٍ ما رَجَعَ الأَوَّلونَ والآخرُونَ بِمِثْلِها، فَيَقُولُونَ يا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلتَنَا النَّارَ قبلَ أنْ تُرِيَنا من ثوابكَ وما أَعْدَدْتَ فيها لأوليائكَ كان أَهْوَنَ عَلَيْنَا، فيقولُ اللَّهُ تعالى ذاكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إذا خَلَوْتُم بارَزْتُمُوني بالعَظَائِمِ وإذا لَقِيتُم النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتينَ تُرَاؤونَ النَّاسَ بخلافِ

(١) حسن: حديث أنس «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع». أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف، [صحيح الجامع: ٨٠٨٣].

(٢) صحيح: حديث «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح». أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

ما تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ هِبْتُم النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجْلَلْتُم النَّاسَ ولم تُجلونِي وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُم العَذَابَ الأَلِيمَ مَعَ ما حرمْتُكمْ مِنَ الثَّوَابِ المُقِيم» (١) قال أحمد بن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار. وقال عيسى عليه السلام: كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدًا بين أطباق النار يصيح. وقال داود: إلهي لا صبر لي على حرّ شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلًا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم :٣٩] ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة، بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك.

فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإنّ كلًا ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرًّا إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضيٌّ عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار :١٣-١٤] فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم.

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها:

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى. فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفًا من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان، قاصرات الطرف عين، ثم

(١) موضوع: حديث «يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها». رويناه في الأربعين لأبي هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة هالك، [ضعيف الترغيب: ٢٣].

يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخالفون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبنًا وخمرًا وعسلاً من أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه.

فيا عجبًا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون. قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أبدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَموا فلا تَبْأَسُوا أَبَدًا: فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف :٤٣][(١)].

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن :٤٦] إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور. وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها، وتأمل أولاً عدد الجنان قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء كبرياء على وجهه في جنة عدن» [(٢)]، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي.

(١) **صحيح**: حديث أبي هريرة «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد، .

(٢) **صحيح**: حديث «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما». متفق عليه من حديث أبي موسى.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ كُلِّها وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيام، وَمَنْ كَانَ منَ أهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد». فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم» (١).

وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرًا لا أحفظه ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر :٧٣] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتظهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدًا ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر :٧٣] ثم تلقاهم الوالدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون له: أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا، قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول:

قد جاء فلان، باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا، فتقول: أنت رأيته؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثري، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطئ رأسه فإذا أزواجه ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝﴾ [الغاشية :١٤-١٦] ثم اتكأ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف :٤٣] ثم ينادي مناد: تحيون فلا تموتون أبدًا وتقيمون فلا تظعنون أبدًا وتصحون فلا تمرضون أبدًا وقال رسول الله ﷺ: «آتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بابَ الجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أَفْتَحَ لأَحَدٍ قَبْلَكَ» (٢).

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً. وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتًا ظاهرًا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين :٢٦] والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ

(١) **صحيح**: حديث أبي هريرة «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها». متفق عليه.
(٢) **صحيح**: حديث «آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح». أخرجه مسلم من حديث أنس.

فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»، وقال أيضًا: «إنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أبا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا» (١)، وقال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «ألا أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الجَنَّةِ» ؟ قال: قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمنا قال: «إنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا مِنْ أَصْنَافِ الجَوْهَرِ كُلِّهِ يُرَى ظَاهِرُها مِنْ بَاطِنِها وَباطِنُها مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيها مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» قال: قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف؟ قال: «لِمَنْ أَفْشَى السَّلامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نِيامٌ» (٢) قال: قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: «أُمَّتِي تُطِيقُ ذلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذلِكَ. مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلامَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ، وَمَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ وَصَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ» (٣)، يعني اليهود والنصارى والمجوس. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة :٧٢] قال: «قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ سبعونَ دارًا مِنْ ياقوتٍ أَحْمَرَ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتًا من زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ، في كُلِّ بيت سَرِير، على كلِّ سرير سبعونَ فِراشًا مِنْ كلِّ لَوْنٍ، على كُلِّ فِرَاشٍ زوجةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً. على كُلِّ مائدةٍ سبعونَ لونًا مِنَ الطَّعَامِ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى المُؤْمِنُ في كُلِّ غَدَاةٍ. يعني من القوّة. ما يأتي على ذلِكَ أَجْمَعَ» (٤).

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها:

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضًا عنها فقد قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ حَائِطَ الجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُها مِسْكٌ» (٥).

---

(١) **صحيح**: حديث أبي سعيد «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر في الأفق». متفق عليه وقد تقدم.

(٢) حديث «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع». رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد.

(٣) **ضعيف**: حديث جابر «ألا أحدثكم بغرف الجنة» قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قال «إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله». أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر، [ضعيف الترغيب: ٢١٩٠].

(٤) **موضوع**: حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: ١٢] قال «قصور من لؤلؤ». أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور، [ضعيف الترغيب: ٢١٩٨].

(٥) **صحيح**: حديث أبي هريرة «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك». أخرجه الترمذي بلفظ «وملاطها المسك» وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه بإسناد صحيح، [صحيح الجامع: ٣١١٦].

وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال: «دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ» (١)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَسقِيَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الخَمْرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْها فِي الدُّنْيا، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ اللَّهُ الحَرِيرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِي الدُّنْيا» (٢)، وقال: «أَنْهَارُ الجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلال - أَوْ تَحْتَ جِبَالِ - المِسْكِ» (٣)، «ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها» (٤)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّها مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُها اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]» (٥)، وقال أبو أمامة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنّ الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله ﷺ قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما هِيَ؟» قال: السدر فإن لها شوكًا، فقال: «قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨] يَخْضُدُ اللَّهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً ثُمَّ تَنْفَتِقُ الثَمَرَةُ مِنْهَا عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ ما مِنْها لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ» (٦)، وقال جرير بن عبد الله: نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه، فقلت للغلام: انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال: يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري قال: ظلم الناس بعضهم بعضًا، ثم أخذ عويدًا لا أكاد أراه من صغره فقال: يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده، قلت: يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر.

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم:

قال الله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَدْخل الجَنَّةَ يَنْعَم وَلا

---

(١) **صحيح**: حديث: سئل عن تربة الجنة فقال «درمكة بيضاء مسك خالص». أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره، .

(٢) **حسن لغيره**: حديث أبي هريرة «من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا». أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»، [صحيح الترغيب: ٢٠٦٥].

(٣) **حسن صحيح**: حديث «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك». أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة، [صحيح الترغيب: ٣٧٢١].

(٤) حديث «لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

(٥) **صحيح**: حديث «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». متفق عليه من حديث أبي هريرة، .

(٦) **صحيح لغيره**: حديث أبي أمامة: أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟. أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبي أمامة، [صحيح الترغيب: ٣٧٤٢].

يَبْأَس لا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ، فِي الجَنَّة ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١]، وقال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلق أم نسج تنسج؟ فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِمًا» ثم قال رسول الله ﷺ: «بَلْ يَنْشَقُّ عَنْها ثَمَرُ الجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ»[٢]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لا يَبْصُقُونَ فِيها وَلا يَمْتَخِطُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفضةِ وَرَشْحُهُم المِسْكُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحَسْنِ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ ولا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً» وفي رواية: «عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً»[٣] وقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ قال: «إنَّ عَلَيْهِم التِّيجَانَ وإنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيءِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»[٤]، وقال ﷺ: «الخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولها فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمؤْمِنِ أَهْلٌ لا يَرَاهُم الآخَرُونَ»[٥]، رواه البخاري في الصحيح. قال ابن عباس: الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة :٣٤] قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض»[٦].

صفة طعام أهل الجنة:

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة :٢٥] وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة، وقد قال ثوبان. مولى رسول الله ﷺ .كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال: فمن أوّل إجازة. يعني على الصراط .؟ فقال: «فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ» قال اليهودي: فما تحفتهم حين

---

(١) صحيح: حديث أبي هريرة «من يدخل الجنة ينعم لا ييأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه». رواه مسلم دون قوله: «في الجنة ما لا عين رأت... إلخ» فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة « قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت... الحديث»، [صحيح الترغيب: ٢٨٣٦].

(٢) حديث: قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلق أم نسج تنسج؟. أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) صحيح: حديث أبي هريرة «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر». متفق عليه، .

(٤) ضعيف: حديث: في قوله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الحج: ٢٣] قال «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رِشْدين بن سعد، [ضعيف الترغيب: ٢٢٢٣].

(٥) صحيح: حديث «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا». عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، .

(٦) ضعيف: حديث أبي سعيد في قوله تعالى ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٣٤] قال «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض». أخرجه الترمذي بلفظ «ارتفاعها لكما بين السماء والأرض» وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدين بن سعد.

يدخلون الجنة؟ قال: «زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ» قال: فما غداؤهم على أثرها؟ قال: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْنٍ فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً» فقال: صدقتَ [(١)]. وقال زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لي بها خصمته، فقال رسول الله ﷺ: «بَلَى وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالجِمَاعِ» فقال اليهودي: فإنّ الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ المِسْكِ فإذا البَطْنُ قَدْ ضَمرَ» [(٢)]، وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «إنَّكَ لَتَنْظُرُ إلى الطَّيْرِ في الجنة فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا» [(٣)]، وقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فِي الجَنَّةِ طَيْرًا مِثْلَ البُخَاتِي». قال أبو بكر رضي الله عنه: إنها لناعمة يا رسول الله؟ قال: «أَنْعَم مِنْها مَنْ يَأْكُلُها وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُها يا أبا بَكْرٍ» [(٤)]، وقال عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ [الزخرف: ٧١] قال: يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝﴾ [المطففين: ٢٧] قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقرّبون صرفًا. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦] قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم وقال: لو أنّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

صفة الحور العين والولدان:

قد تكرّر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه. روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيها وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعِ قَدَمِهِ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الأَرْضِ لأَضَاءَتْ وَلَمَلأَتْ ما بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيفُها عَلَى رَأْسِها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا بَما فِيها» [(٥)]، يعني الخمار،

---

(١) **صحيح**: حديث ثوبان: جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال: فمن أول الناس إجازة؟ يعني على الصراط فقال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال «زيادة كبد الحوت». رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره.

(٢) **صحيح**: حديث زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟. أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح، [صحيح الجامع: ١٦٢٧].

(٣) **ضعيف جدًا**: حديث ابن مسعود «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا». أخرجه البزار بإسناد صحيح، [ضعيف الترغيب: ٢٢٠٧].

(٤) **حسن صحيح**: حديث حذيفة «إن في الجنة طيرا مثل البخاتي». غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح «إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة» قال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير ناعمة قال «أكلتها أنعم منها» قالها ثلاثا «وإني أرجو أن تكون ممن يأكل منها» وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال: «فيه طير أعناقها كأعناق الجزر» قال عمر: إن هذه لناعمة. . . الحديث. وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن، [صحيح الترغيب: ٣٧٧٤].

(٥) **صحيح**: حديث «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». أخرجه البخاري من حديث أنس.

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن :٥٨] قال: «ينظرُ إِلَى وَجْهِهَا فِي خِدْرِها أَصْفَى مِنَ المِرآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤةٍ عَلَيْهَا لَتضِيءُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُون عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يرَى مُخ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ ذلِكَ» (١).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي دَخَلْتُ في الجَنَّةِ مَوْضِعًا يُسَمَّى البَيْدَخَ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤلؤ وَالزَّبَرْجَدِ الأَخْضَر وَاليَاقُوتِ الأَحْمَر فَقُلْنَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقُلْتُ: يا جِبْرِيل مَا هذا النِّدَاءُ؟ قَالَ: هؤلاءِ المَقْصُورَاتُ فِي الخِيام اسْتَأْذَنَّ رَبَّهُنَّ فِي السَّلام عَلَيْكَ فَأْذِنَ لَهُنَّ، فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ نَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَط أبدًا وَنَحْنُ الخَالِدَاتُ فلا نَظْعَنُ أَبدًا» وقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن :٧٢] (٢).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران :١٥] قال: من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد. وقال الأوزاعي: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝﴾ [يس: ٥٥] قال: شغلهم افتضاض الأبكار. وقال رجل: يا رسول الله أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ القُوَّةِ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ» (٣)، وقال عبد الله بن عمر؛ إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ خَمْسمائَةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلاف بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلافِ ثَيِّبٍ يُعَانِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيَا» (٤).

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ سُوقًا ما فيها بَيْعٌ وَلا شِرَاءٌ إِلاَّ الصُّورُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَإِذا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيها، وَإِنَّ فِيها لَمُجْتَمَعَ الحور العِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَع الخَلائِق مِثْلها يَقُلْنَ نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فلا نَبْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَطُ فَطوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنا

---

(١) **صحيح**: حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] قال «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة». أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلا دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث ابن مسعود «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة... الحديث» ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم».

(٢) **منكر**: حديث أنس «لما أسري بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح» لم أجده هكذا بتمامه وللترمذي من حديث علي «إن في الجنة لَمُجْتَمَعاً للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له» وقال: غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف «فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات... الحديث»، [ضعيف الترغيب: ٢٢٣١].

(٣) **حسن صحيح**: حديث: قال رجل يا رسول الله أَيُبَاضِع أهل الجنة؟ قال «يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم». أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع» فقيل أو يطيق ذلك؟ قال «يعطى قوة مائة».

(٤) حديث «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا». أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال «مائة حوراء» ولم يذكر فيه عناقه لهن، وإسناده ضعيف، وتقدم قبله بحديث.

لَهُ» (١) وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحُورَ العِينَ فِي الجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ: نَحْنُ الحُور الحِسَانُ خُبِئْنَا لأَزْوَاجٍ كِرَام» (٢)، وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] قال السماع في الجنة. وقال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلاّ وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ اثْنَتَانِ مِنَ الحُورِ العِين يُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَن صَوْتٍ سَمِعَهُ الإنْسُ وَالجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلكِنَّهُ بِتَحمِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيسِهِ» (٣).

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار:

روى أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألاَ هَلْ مِنْ مُشمِّرٍ لِلْجَنَّةِ إنَّ الجَنَّةَ لا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ وَريحَانَةٌ تَهْتَز وَقَصْرٌ مُشيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّردٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حبرَةٍ وَنِعْمَةٌ فِي مُقَامٍ أبدًا وَنَضْرَةٌ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله قال: «قُولُوا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى». ثم ذكر الجهاد وحضّ عليه (٤). وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: «إنْ أَحْبَبْتَ ذلِكَ أُوتِيتَ بِفَرسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ فَتَطِيرُ بِكَ فِي الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ» وقال له رجل: إنّ الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال «يا عَبْدَ اللَّهِ إنْ أُدْخِلْتَ الجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ» (٥).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الوَلَد كَمَا يَشْتَهِي، يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُه فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ» (٦).

وقال رسول الله ﷺ: «إذا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ اشْتَاقَ الإخْوَانُ إلى الإخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هذا إلى سَرِيرِ هذا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ ما كانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فيقولُ يا أَخِي تَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسِ كَذَا

---

(١) حديث «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء». أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين.

(٢) **صحيح**: حديث أنس «إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن: نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام». أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به، [صحيح الجامع: ١٦٠٢].

(٣) **ضعيف جدًا**: حديث أبي أمامة «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين». أخرجه الطبراني بإسناد حسن، [الضعيفة: ٥٠٢٨].

(٤) **ضعيف**: حديث أسامة بن زيد «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها» أخرجه ابن ماجه وابن حبان، [ضعيف الجامع: ٢١٨٠].

(٥) **ضعيف**: حديث جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟. أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة.

(٦) **صحيح**: حديث أبي سعيد «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي». أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب، قال: وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، انتهى. ولأحمد من حديث لأبي رزين «يلذ ويلم مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لا توالد».

فَدَعَوْنا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنا» [١]، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ جِعَادٌ مَكْحُولُونَ أبناء ثلاثٍ وَثلاثين عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ ستونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ» [٢]، وقال رسول الله ﷺ: «أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ واثنتان وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لؤلؤ وزبرجدٍ وياقوتٍ كما بينَ الجابيةِ إلى صَنْعَاءَ وإنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجانَ وإنَّ أَدْنَى لُؤلؤةٍ مِنْها لَتُضِيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ» [٣]. وقال ﷺ: «نظرتُ إِلَى الجنةِ فإذا الرُّمانَةُ مِنْ رمَّانِها كَخُلْفِ البَعِيرِ المُقَتَّبِ وَإذا طَيْرُها كالبُخْتِ، وإذا فيها جَارِيَةٌ فقلتُ يا جَارِيَةُ لِمَنْ أَنْتِ؟ فقالتْ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وإذا في الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [٤]. وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١]. فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناه تفصيلاً.

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال: إنّ رمانها مثل الدلاء، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرؤوس، وإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعًا في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة، وإن لهم فيها خيلاً وإبلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت، لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا، أما إنه ليس ليل يكرّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدّ له

---

(١) **ضعيف**: حديث «إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا». أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى. والربيع بن صبيح ضعيف جدًا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس، [الضعيفة: ٢٣٢١].

(٢) **صحيح**: حديث «إن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحلون». أخرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله «بيض جعاد» ودون قوله «على خلق آدم» إلى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا «أهل الجنة جرد مرد كحل» وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا».

(٣) **ضعيف**: حديث «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعا من أوله إلى قوله «وإن عليهم التيجان» ومن هنا بإسناده أيضا وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد، [ضعيف الجامع: ٢٦٦].

(٤) حديث «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت». رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد وأبو هارون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدًا. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها، في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوّله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل الجنة منزلاً لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه؛ وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي. وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة؛ سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشدّ وترك الدنيا مهر الآخرة. وقال أيضًا في طلب الدنيا ذل النفوس، وفي طلب الآخرة عز النفوس، فيا عجبًا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى.

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى:

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة. وقد ذكرناه حقيقتها في كتاب المحبة. وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة.

قال جرير بن عبد الله البجلي: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تغْلبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُروبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠][1] وهو مخرج في الصحيحين.

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: «إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّار نادَى مُنادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يريدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ؟» قالوا: ما هذا المَوْعِدُ؟ ألم يُثْقِلْ مَوَازِينَنا وَيُبَيِّضْ وَجُوهَنا وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُجِرنَا مِنَ النَّارِ؟» قال: «فَيُرْفَعُ الحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إلى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فما أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»[2]. وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى، وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء: وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى. وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى.

---

(١) **صحيح**: حديث جرير: كنا جلوس عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر» هو في الصحيحين كما ذكر المصنف.

(٢) حديث صهيب في قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] رواه مسلم كما ذكره المصنف.

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك:

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل [1]، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا، ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرًا وباطنًا فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه. فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ فيها يَتَعَاطَفُونَ وَبِها يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِها عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» [2]. ويروى «أنه إذا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَخْرَجَ اللَّهُ تعالى كِتابًا مِنْ تحتِ العَرْشِ فِيهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فيخرجُ مِنَ النَّارِ مثلا أَهْلِ الجَنَّةِ» [3]. وقال رسول الله ﷺ: «يَتَجَلى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لنا يومَ القِيامَةِ ضاحِكًا فيقولُ أَبْشِرُوا مَعْشَرَ المسلمينَ فإنهُ ليسَ منكم أَحَدٌ إلاّ وَقَدْ جَعلتُ مكانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا» [4]، وقال النبي ﷺ: «يُشفعُ اللَّهُ تَعالَى آدمَ يومَ القِيَامَةِ مِنْ

(١) **صحيح**: حديث: كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل. متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث «ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة» ولهما من حديث أبي هريرة «وخيرها الفأل؟» قال «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

(٢) **صحيح**: حديث «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان.

(٣) **صحيح**: حديث «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي». متفق عليه من حديث أبي هريرة «لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي» لفظ البخاري وقال مسلم «كتب في كتابه على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي».

(٤) **صحيح**: حديث «يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين». أخرجه مسلم من حديث أبي موسى «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا فيقول: هذا فداؤك من النار» ولأبي داود «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة... الحديث» وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا «يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة» وفيه علي بن زيد بن جدعان.

جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ في مِائةِ أَلْفِ أَلْف وَعَشَرَةِ آلافِ أَلْفٍ» (١) .

وقال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ يا رَبَّنا فيقولُ: لِمَ؟ فيقولونَ: رَجَونا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ. فيقولُ: أَوْجَبْت لكمْ مَغْفِرَتِي» (٢) ، وقال رسول الله ﷺ : «يقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَومَ القِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَام» (٣) ، وقال رسول الله ﷺ : «إذا اجْتَمَعَ أَهْلُ النارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِن أَهْلِ القِبْلَةِ قالَ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قالوا: بَلَى فيقولونَ ما أَغْنَى عنكم إسلامُكُمْ إِذْ أنتم مَعَنَا فِي النَّارِ فيقولونَ كانَتْ لنا ذنوبٌ فَأُخِذنا بها، فيسمعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ما قالوا فيأمُرُ بإخْرَاجِ مَن فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَيُخْرَجُونَ فإذا رَأى ذلكَ الكفارُ قالوا يا لَيْتَنا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنُخْرَج كَمَا أُخْرِجُوا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر :٢] (٤) .

وقال رسول الله ﷺ : «للَّه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشفيقَةِ بِوَلَدِها» (٥) ، وقال جابر بن عبد الله: من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابًا يسيرًا ثم يدخل الجنة. وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويروى أنّ الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه. وقال سعد بن بلال: يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار، فيقول الله تبارك وتعالى: ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ويأمر بردهما إلى النار، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيأمر بردهما ويسألهما عن فعلهما، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ حسن ظني بك كان يشعرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها، فيأمر بهما إلى الجنة، وقال رسول الله ﷺ : «يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا ما كانَ لِي قبلكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ فَتَوَاهَبُوها وَادْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي» (٦) .

---

(١) منكر: حديث «يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف». أخرجه الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف، [ضعيف الترغيب: ٢١١٦].

(٢) **ضعيف**: حديث «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا». أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف، [ضعيف الترغيب: ٢٠٤٥].

(٣) حديث «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام». أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب.

(٤) **صحيح**: حديث «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى». أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح، [السنة: ٨٤٣].

(٥) **صحيح**: حديث «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها». متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله: قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته ببطنها فأرضعته.

(٦) **ضعيف**: حديث «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد». رويناه في سباعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة، [ضعيف الترغيب: ٧٤٠].

ويروى أنّ أعرابيًّا سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران :١٠٣] فقال الأعرابي: فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال: مهلاً، لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثًا واحدًا وسوف أحدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إلهَ إلاّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ» (١)، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلاً كُلُّ سجل مِنْها مِثْل مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أتنكرُ مِنْ هذا شيئًا أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فيقولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا، يا رَبِّ. فيقولُ: بَلَى إنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَيُخْرِجُ بطاقَةً فيها: أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاّ اللَّهُ وَأَشْهَد أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ فيقولُ يا رَبِّ ما هذِهِ البِطاقةُ مَعَ هذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فيقولُ: إنَّكَ لا تُظْلَمُ» قال ﷺ: «فَتُوْضَعُ السِّجلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ» قال: «فَطَاشَتِ السِّجلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» (٢)، وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط: «إنَّ اللَّهَ يَقولُ لِلملائِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مثقالَ دينارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كثيرًا ثم يقولونَ يا رَبَّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، ثم يقولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قلبِهِ مثقالَ نصف دينار مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خلقًا كثيرًا، ثمَّ يقولونَ يا ربَّنا لم نَذَرْ فيها أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنا به ثُمَ يقولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجدْتُمْ في قَلْبِهِ مثقالَ ذَرَةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيخْرِجُونَ خَلقًا كَثيرًا ثُمَّ يقولونَ يا رَبنا لم نَذَرْ فِيها أحدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ».

فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء :٤٠] قال فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في جميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض، قالوا يا رسول الله: كأنك كنت ترعى بالبادية قال: «فَيَخْرُجُونَ كَاللؤلؤ فِي رِقابِهِم الخَوَاتِيمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ يَقُولُونَ هؤلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمن الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثمَّ يَقولُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ فما رأيتم فَهُوَ لَكُمْ فيقولونَ: رَبَّنا أعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، فيقولُ اللَّهُ تعالَى: إنَّ لَكُمْ عِنْدي ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هذا. فيقولونَ: يا رَبَّنا أيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هذا؟ فيقولُ: رِضَائِي عَنْكُمْ فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَه أَبدًا» (٣)، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(١) **صحيح**: حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار». أخرجه مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر.

(٢) **صحيح**: حديث عبد الله بن عمرو «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينتشر عليه تسعة وتسعون سجلاً» فذكر حديث البطاقة. ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب، [صحيح الجامع: ١٧٧٦].

(٣) **صحيح**: حديث «إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا». أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد.

وروى البخاري أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَم يَمُرُّ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ معهُ أَحَدٌ والنبيُّ معهُ الرَّهْط. فرأيت سوادًا كثيرًا فَرَجَوْتُ أن تكونَ أُمَّتِي فقيلَ لي هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثمَّ قيلَ لي انْظُرْ فرأيتُ سَوَادًا كَثيرًا قَدْ سَدَّ الأفُقَ، فَقِيلَ لِي انْظُرْ هكَذَا وَهكَذَا فَرَأَيْتُ سَوادًا كثيرًا، فَقيلَ لِي هؤلاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هؤلاءِ سَبْعُونَ أَلفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ» فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هُمْ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرقُونَ وَلا يَتَطَيرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله. فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة، فقال النبي ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ» (١).

وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثًا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال: «لَمْ يَحْدُثْ إلاّ خَيْرٌ إنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هذِهِ الثَّلاثَةِ أَيَّام المَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّي ماجدًا واجدًا كَرِيمًا فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلفًا سَبْعِينَ ألفًا» قال: «قُلْتُ يا رَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِي هذا؟ قالَ أُكْمِلُ لَكَ العَدَدَ مِنَ الأَعْرَابِ» (٢).

وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «عَرَضَ لِي جِبْرِيل فِي جَانِبِ الحَرَّةِ فقالَ: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّة، فَقُلْتُ يا جِبْرِيلُ وإنْ سَرَقَ وَإنْ زَنى؟ قَالَ: نَعَمْ وَإنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قُلْتُ وَإنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى. قلتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قالَ وإنْ سَرَقَ وَإنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ» (٣)، وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن :٤٦] فقلت: وإن سرق وإن زنى يا رسول الله؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾. فقلت وإن سرق وإن زنى؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، فقلت: وإن سرق وإن زنى يا رسول الله؟ قال: وَإنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاء (٤). وقال رسول الله ﷺ: «إذَا كَانَ يَوْم القِيَامَةِ دُفِعَ إلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ

---

(١) **صحيح**: حديث ابن عباس «عرضت علي الأمم يمر النبي ومعه النبي والرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي وليس معه أحد والنبي معه الرهط». رواه البخاري.

(٢) **صحيح**: حديث عمرو بن حزم الأنصاري: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه «إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم» وفيه «أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا». أخرجه البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر «فزادني مع كل واحد سبعين ألفا» وفيه رجل لم يسم، [السنة: ٥٨٨]. ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: فهلا استزدته؟ فقال «استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا» قال عمر: فهلا استزدته؟ قال «قد استزدته فأعطاني هكذا» وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه، قال عبد الله: وبسط باعَيْهِ وحثى عليه. وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف.

(٣) **صحيح**: حديث أبي ذر «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة». متفق عليه بلفظ «أتاني جبريل ليبشرني» وفي رواية لهما «أتاني آت من ربي».

(٤) ضعيف: حديث أبي الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فقلت «وإن زنى وإن سرق». رواه أحمد بإسناد صحيح، [ضعيف الجامع: ٣٤٠٤].

فَقِيلَ لَهُ هذا فِدَاؤك مِنَ النَّارِ»[١].

وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة: أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «لا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلاّ أَدْخَلَ اللَّهُ تَعَالَى مكانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا» فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدّثه عن رسول الله فحلف له[٢].

وروي أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحرّ فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتدّ وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ، وقالت: ابني ابني فبكى الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال: «أَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هذِهِ لابْنِها؟» قالوا: نعم، قال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَمِيعًا مِنْ هذِهِ بِابْنِهَا»[٣] فتفرّق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة.

فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته. آمين



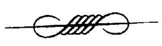
(١) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار». رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: حديث أبي بردة: أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ قال «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا». عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك.

(٣) **صحيح**: حديث: وقف صبي في بعض المغازي، ينادي عليه فيمن يزيد - في يوم صائف شديد الحر - فبصرت به امرأة». متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»، لفظ مسلم، وقال البخاري: فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيا . . . الحديث.

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء.

الفهرس



كتاب

تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

ويليه

كتاب

الإملاء في إشكالات الإحياء



كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطيها في أحسن كتاب، وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب وذخيرة ليوم المآب. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الألباب، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب، ما أشرقت شمس الإحياء للقلوب، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب، إلى إسعاف ملازمي مطالعته ومحبيه بالمطلوب.

وبعد: فإنَّ الكتاب العظيم الشأن المسمى بإحياء علوم الدين - المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين، وأهل طريق الله السالكين المشايخ العارفين، المنسوب إلى الإمام الغزالي رضي الله عنه عالم العلماء وارث الأنبياء، حجة الإسلام، حسنة الدهور والأعوام، تاج المجتهدين، سراج المتهجدين، مقتدى الأئمة، مبين الحل والحرمة، زين الملة والدين، الذي باهى به سيد المرسلين ﷺ وعلى جميع الأنبياء ورضي عن الغزالي وعن سائر العلماء المجتهدين، لما كان عظيم الوقع، كثير النفع، جليل المقدار، ليس له نظير في بابه ولم ينسج على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله، مشتملاً على الشريعة والطريقة والحقيقة، كاشفًا عن الغوامض الخفية مبينًا للأسرار الدقيقة: رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة على صبابة من فضله وشرفه، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ورتبته على مقدمة، ومقصد، وخاتمة. فالمقدمة: في عنوان الكتاب. والمقصد: في فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه. والخاتمة في ترجمة المصنف رضي الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة.

المقدمة: في عنوان الكتاب

اعلم: أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، والظاهرة قسمان: معاملة بين العبد وبين الله تعالى، ومعاملة بين العبد وبين الخلق. والباطنة أيضًا قسمان: ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة وقد بنى الإمام الغزالي رحمة الله كتابه «إحياء علوم الدين» على هذه الأربعة أقسام فقال في خطبته: ولقد أسسته على أربعة أرباع. ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات.

فأما ربع العبادات: فيشتمل على عشرة كتب: كتاب العلم. كتاب قواعد العقائد. كتاب أسرار الطهارة. كتاب أسرار الصلاة. كتاب أسرار الزكاة. كتاب أسرار الصيام. كتاب أسرار الحج. كتاب تلاوة القرآن. كتاب الأذكار والدعوات. كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وأما ربع العادات: فيشتمل على عشرة كتب: كتاب آداب الأكل. كتاب آداب النكاح. كتاب آداب الكسب. كتاب الحلال والحرام. كتاب آداب الصحبة. كتاب العزلة. كتاب آداب السفر. كتاب آداب

السماع والوجد. كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كتاب أخلاق النبوة.

وأما ربع المهلكات: فيشتمل على عشرة كتب: كتاب شرح عجائب القلب. كتاب رياضة النفس. كتاب آفة الشهوتين: البطن والفرج، كتاب آفة اللسان. كتاب آفة الغضب والحقد والحسد. كتاب ذم الدنيا. كتاب ذم المال والبخل. كتاب ذم الجاه والرياء. كتاب الكبر والعجب. كتاب الغرور.

وأما ربع المنجيات: فيشتمل على عشرة كتب: كتاب التوبة. كتاب الصبر والشكر. كتاب الخوف والرجاء. كتاب الفقر والزهد. كتاب التوحيد والتوكيل. كتاب المحبة والشوق والرضا. كتاب النية والصدق والإخلاص. كتاب المراقبة والمحاسبة. كتاب التفكر. كتاب ذكر الموت.

ثم قال رحمة الله: فأما ربع العبادات: فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليها، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات. وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغنى المتدين عنها. وأما ربع المهلكات فأذكر فيه: كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وأذكر في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته، ثم سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها يترتب، ثم العلامات التى بها يتعرف، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار. وأما ربع المنجيات فأذكر فيه: كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد من رب العالسين، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها يستفاد، وعلامتها التي بها تعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل.

المقصد: في فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا، وعز من أفرادها فيما علمت بتأليف، وهي جديرة بالتصنيف، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق، واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكبارها، وجال في بساتين العلوم فاجتنى ثمارها بعد أن اقتطف من أزهارها، وسما إلى سماء المعاني فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة، وجليت عليه عرائس أسرار معاني فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة، جمع رضي الله عنه فأوعى، وسعى في إحياء علوم الدين فشكر الله له ذلك المسعى؛ فلله دره من عالم محقق مجيد، وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد، لقد أبدع فيما أوع كتابه من الفوائد الشوارد، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملى، بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلى، إذ كان رضي الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك، وأين مثله وأصله أصله، وفضله فضله.

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن، ونظم أشتات الفضائل، وأخذ برقاب المحامد، واستولى على غايات المناقب، فشجرته في قرارة العلم والعمل والعلا والفهم والذكاء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، مع كونه رضي الله عنه ذا الصدر الرحيب والقريحة الثاقبة والدراية الصائبة، والنفس السامية

والهمة العالية. ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه أن الفقيه العلامة قطب اليمن إسماعيل ابن محمد الحضرمي ثم اليمي سئل عن تصانيف الغزالي فقال من جملة جوابه: محمد بن عبد الله ﷺ سيد الأنبياء، ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين.
وذكر اليافعي أيضًا أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن على بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطاعًا مسموع الكلمة، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي ﷺ فيه ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي ﷺ؛ فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالي: هذا خصمي يا رسول الله فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله، وإن كان شيئًا حصل لي من بركتك وإتباع سنتك فخذ لي حقي من خصمي، ثم ناول النبي ﷺ كتاب الإحياء، فتصفحه النبي ﷺ ورقة ورقة من أوله إلى أخره ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه فنظر فيه فاستجاده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفترى، فجرد وضرب، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضي عنه وقال: يا رسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق، ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر، ولكنه بقى مدة طويلة متألما من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله ﷺ، إلى أن رأي النبي ﷺ دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفي وشفي بإذن الله تعالى، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى.

قال الشافعي: روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بنت الميلق الشاذلي عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلي عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي قدس الله أرواحهم وكان معاصرًا لابن حرزهم قال: وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: ولقد مات الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم رحمه الله يوم مات وأثر السياط على ظهره.
وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به قال: سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفرايني يقول: سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة يقول: دخلت المسجد الحرام يوما فطرأ على حال وأخذني عن نفسي، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي، فوقعت على جنبي الأيمن تجاه الكمية المعظمة وأنا على طهارة، وكنت أطرد عن نفسي النوم، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة، فرأيت النبي ﷺ في أكمل صورة وأحسن زي من القميص والعمامة، ورأيت الأئمة الشافعي ومالكا وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهبهم واحدا بعد واحد، وهو ﷺ يقررهم عليها، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبي ﷺ بطرده وإهانته، فتقدمت أنا وقلت: يا رسول الله، هذا الكتاب - أعنى إحياء علوم الدين - معتقدي ومعتقد أهل السنة الجماعة، فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك فأذن لي فقرأت عليه من «كتاب قواعد العقائد»:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول: الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالي: وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمدا ﷺ إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس، فرأيت البشاشة في وجهه ﷺ. ثم التفت وقال: أين الغزالي. وإذا بالغزالي بين يديه فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، وتقدم وسلم، فرد عليه السلام، عليه الصلاة والسلام، وناوله بيده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها، وما رأيت النبي ﷺ أشد سرورًا بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء، ثم انتهيت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات، وكان تقريره ﷺ لمذاهب أئمة السنة، واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها نعمة من الله عظيمة؟ ومنة جسيمه، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته، آمين.

(فصل) أثنى على الإحياء عالم من علماء الإسلام، وغير واحد من عارف الأنام. بل جمع أقطاب وأفراد، فقال فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه: إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه، مقتديا بقول على كرم الله وجهه: خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي، إلى آخر ما ذكره مما الأولى بنافى هذا المحل طيه، ثم الانتقال إلى نشر محاسن الإحياء ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه. وقال عبد الغافر الفارسي في كتاب الإحياء: إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها: وقال فيه النووي: كاد الإحياء أن يكون قرآنا، وقال الشيخ أبو محمد الكازروني: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء. وقال بعض علماء المالكية: الناس في فضل علوم الغزالي آي والإحياء جماعها، كما سيأتي أنه البحر المحيط. وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العبد روس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً وروى عنه قال: مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التي قبلها. ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد أثنى على كتاب الإحياء بما أتى عليه، ودعا الناس بقوله وفعله إليه، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه. ومن كلامه رضي الله عنه: عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية، خصوصًا: كتاب ذكر الموت، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوبة، وكتاب رياضة النفس، ومن كلامه: عليكم بالكتاب والسنة أولا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وفكرا واعتبارا واعتقادا، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به ومن كلامه: وبعد فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين، وبقية المجتهدين، حجة الإسلام الغزلي، في كتابه العظيم الشأن الملقب: أعجوبة الزمان، إحياء علوم الدين، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة: ومن كلامه: عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله،

فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ورسول الله ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة وصار عالمًا في الملك والملكوت. ومن كلامه الوجيز العزيز: لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء. ومن كلامه: اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل في لحظة كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج في العفص والماء، وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن. ومن كلامه: أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ومحبة كتبه؛ فإن كتب الإمام الغزالي لباب الكتاب والسنة، ولباب المعقول والمنقول، والله وكيل على ما أقول. ومن كلامه: أنا أشهد سرًا وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين.

ومن كلامه: من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة كتب الغزالي خصوصًا «إحياء علوم الدين» فهو البحر المحيط. ومن كلامه: اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة. ومن كلامه: من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالي وخصوصًا البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان، ومن كلامه: نطق معاني معنوي القرآن، ولسان حال قلب رسول الله ﷺ وقلوب الرسل والأنبياء، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء، بل جميع أرواح الملائكة، بل جميع فرق الصوفيه مثل العارفين والملامتية، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات وما يناسب رضا الذات والصفات، أجمع هؤلاء المذكورين أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب كمتابعة الغزالي ومحبة كتبه، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة، بل قلب المعقول المنقول، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل في الصور، وفي يوم نقر الناقور، والله وكيل على ما أقول. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. ومن كلامه: كتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار وكتاب بداية الهداية فيه التقوى، وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم، وكتاب منهاج العابدين فيه الطريق إلى الله، وكتاب الخلاصة في الفقه فيه النور. ومن كلامه: السر كله في إتباع الكتاب والسنة؛ وهو إتباع الشريعة، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين المسمى أعجوبة الزمان. ومن كلامه: بخ بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين أو كتبه أو سمعه. وكلامه رضي الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحونٌ من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه، والحث على العمل بها خصوصًا إحياء علوم الدين. وقد كان سيدي ووالدي الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ ابن عبد الله العيدروس رضي الله عنه يقول: إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله في الغزالي وسميته (الجوهر المتلالى، من كلام الشيخ عبد الله في الغزالي) فلم يتيسر له، وأرجو أن يوفقني الله لذلك، تحقيقًا لرجائه ورجاء أن يتناولني دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه، فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي، وناهيك ببشارة في هذه العبارة التي برزت من ولي عارف وقطب مكاشف لا يجازف في مقال ولا ينطق إلا عن حال، وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة، حتى إن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه في وألزم

أخاه الشيخ عليا قراءته فقرأه عليه مدة حياته خمسًا وعشرين مرة، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف، ثم إن الشيخ عليًا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته، فختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول: لا أترك تحصيل الإحياء أبدًا ما عشت، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ قلت. وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخًا عديدة نحو السبع، وأمر بقراءته عليه غير مرة، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة، فملازمته ميراث عيدروسي وتوفيق قدوسي فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والدنيا.

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف: لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس. قلت: وهو صحيح؛ فإني مع خسيس قصدي وقساوة قلبي أجد عند مطالعتي له انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه، ثم يفتر برجوعي إلى ما أنا فيه ومخالطة أهل الكثافات، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق، وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه وحسن قصده. والمراد بالكافر هنا فيما يظهر: الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق، أي فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق غيرهم، كذلك جعل لما يبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره؛ لأن ألسنتهم كريمة وأنوار قلوبهم عظيمة، وهممهم علية وإشاراتهم سنية، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر، حتى تجد الرجل له العلم القليل وبعد ذلك ينتفع به كثير لحسن نيته ووجود بركته وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه في منزلته، ومن تأمل ذلك وجده أمرًا ظاهرا معهودا، وشيئًا مجربا موجودًا؛ فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى، والتنبيه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، والجمل العربية والإرشاد في علم الكلام وانتشارها؛ مع أن ما حوت من العلم في فنونها قليل، وقد جمع هؤلاء في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أضعاف ما فيها من تحقيق تحرير العبارة وتشقيق وتلخيص الحدود، وبعد هذا فالنفع بهذه أكثر وهي أظهر وأشهر؛ لأن العلم بمزيد التقوى وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضعه الله في القلب، قلت: ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه لنفسه فيه قوله:

أخي انتبه والزم سلوك الطرائق	وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبًا شرح الكتاب وسنة	وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق	وشرب حميًا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعاني ضواحكًا	بباهج حسن جاذب للخلائق

عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل ... وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له في الطرائق
فكم من بديع اللفظ يجلى عرائسا ... وكم من شموس في حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا ... على درّ لفظ للمعاني مطابق
وكم من عزيزات ذهت في قبابها ... محجبة عن غير كفء مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة ... حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان وروض لطائف ... وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارًا تعافى جنانها ... يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذاكى جناها فواكها ... بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى قد علا من علا ... بشامخ بجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن فجربن ... وأقبل على تلك المعاني وعانق
وراجع طريقا في بديع جمالها ... وطف في حماها منشدا كل سابق
ترى في بدور الحي أقمار قد بدت ... بعالى جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشعت عمى ... وكم قد سعت في غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكرن مغرما ... أصم عن العذال غير موافق
ويمسى يناديها طريحًا ببابها ... منعم عيش في الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا ... محمد المختار خير الخلائق
وأصحاب أهل المكارم والعلا ... وعترته وراث علم الحقائق

(فصل) وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر - وفي التحقيق لا إشكال - أو أخبار وآثار تكلم في سندها: فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف في كتابه المسمى (بالأجوبة) وأسوق لك نبذة من ذاك هنا. قال رحمه الله: سألت - يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها - عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام وأمثال الأنعام وأتباع العوام وسفهاء الأحلام وعار أهل الإسلام، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءه ومنتحليه ومطالعته، وأفتوا بالهوى مجردًا على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته ونسبوا عليه إلى ضلال، ورموا قراءته بزيغ عن الشريعة واختلال، إلى أن قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ثم ذكر آيات أخرى في المعنى، ثم وصف الدهر وأهله وذهاب العلم وفضله ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين، بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال: حجبوا عن الحقيقة بأربعة: الجهل والإصرار، ومحبة الدنيا، وإظهار الدعوى. ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة. قال: فالجهل أورثهم السخف إلى آخر ما ذكره. وأما ما اعترض به من تضمينه أخبارا وآثارا

موضوعة أو ضعيفة، وإكثاره من الأخبار والآثار - والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع في الموضوع.

وحاصل ما أجيب به عن الغزالي - ومن المجيبين الحافظ العراقي - أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج، وغير الأكثر وهو في غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة «روى» وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة، فهو اعتراض ساقط، لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل، وكتابه في الرقائق فهو من قبلها؛ ولأن له أسوة بأئمة الحفاظ في اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفة تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين - وهي كتب الأحكام لا الفضائل - يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها، حتى جاء النووي رحمه الله في المتأخرين ونبه على ضعف الحديث وخلافه، كما أشار إلى ذلك كله العراقي. قال عبد الغافر الفارسي سبط القشيري: ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لمآثره... إلى آخر ما ذكره. ومما يدلك على جلالة كتب الغزالي: ما نقل ابن السمعاني من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم: كأن الشمس طلعت من مغربها مع تعبير ثقاب المعبرين ببدعة تحدث، فحدثت في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها لتوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير ووثب عليه الجند، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس ونكد، بعد أن كان عادلاً.

خاتمة في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضي الله عنه وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه: فهو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري، الذي انتشر فضله في الآفاق وفاق، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها، والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها وحسن الإشارة وكشف المعضلات والتبحر في أصناف العلوم وفروعها وأصولها. ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها مع ما خصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة والزهد، والعزوف عن زهرة الدنيا والإعراض عن الجهات الفانية وإطراح الحشمة والتكلف. قال الحافظ العلامة ابن عساكر والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي رحمهم الله تعالى: ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين، وجدَّ واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه، وجلس للإفراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه، ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيما لعلو درجته وحسن مناظرته، وكانت حضرة نظام الملك محطا لرحال العلماء، ومقصد الأئمة والفضلاء، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول، فظهر اسمه وطار صيته، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية، فسار إليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة، ثم انقلب الأمر

من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة مشتغلا بأسباب التقوى، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل «إحياء علوم الدين» وغيره، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم. قيل إن تصانيفة وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس، ثم صار إلى القدس مقبلا على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشمائل حتى مرن على ذلك، ثم عاد إلى وطنه طوس لازما بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى، والاستعداد للدار الآخرة يرشد الضالين ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة - خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه - قيل: وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام على ما حكي في كرامات الشيخ سيد العمودي نفع الله به. وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد اليمنى الزبيدي - وكان معاصرًا للغزالي نفع الله بهما - قال: بينما أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس، فوقفوا على قبر من القبور وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوزت السماوات السبع وخرق بعدها ستين حجابًا ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه، فسألت عنه فقيل لي: هذا الإمام الغزالي، وكان ذلك عقب موته رحمه الله تعالى، ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبيﷺ وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال: أفي أمتكما حبر كهذا؟ قالا: لا، وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي. وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبيﷺ في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة: أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه. روى ذلك عن الإمام أحمد بن جنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعني عمر بن عبد العزيز والشافعي.

ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته: البسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة في الفقه، وإحياء علوم الدين: وهو من أنفس الكتب وأجملها، وله في أصول الفقه: المستصفى، والمنخول، والمنتحل في علم الجدل، وتهافت الفلاسفه، ومحك النظر، ومعيار العلم، والمقاصد، والمضنون به على غير أهله، ومشكاة الأنوار، والمنقذ من الضلال، وحقيقة القولين، وكتاب «ياقوت التأويل في تفسير التنزيل» أربعين مجلدًا، وكتاب أسرار علم الدين، وكتاب منهاج العابدين، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة، وكتاب الأنيس في الوحدة، وكتاب القربة إلى الله عز وجل، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار، وكتاب بداية الهداية، وكتاب جواهر القرآن، والأربعين في أصول الدين، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وكتاب ميزان العمل، وكتاب القسطاس المستقيم، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، وكتاب

المبادئ الغايات، وكتاب كيمياء السعادة، وكتاب تلبيس إبليس، وكتاب نصيحة الملوك، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل، وكتاب المقاصد، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام، وكتاب الانتصار، وكتاب الرسالة اللدنية، وكتاب الرسالة القدسية، وكتاب إثبات النظر، وكتاب المأخذ، وكتاب القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل، وكتاب المستظهرى، وكتاب الأمالي، وكتاب في علم الوفق وحدوده، وكتاب مقصد الخلاف، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين، وكتبه كثيرة وكلها نافعه.

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأفليشى المحدث الصوفي صاحب كتاب النجم والكواكب:

أبا حامد أنت المخصص بالمجد	وأنت الذي علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا	وتنقذنا من طاعة النازع المردى
فربع عباداته وعاداته التي	يعاقبها كالدر نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإنه	لمنج من المهلك المبرح والبعد
ورابعها في المنجيات وإنه	ليسرح بالأرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر	ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها: فذكر رحمه الله تعالى من الضلال ما صورته:

أما بعد: فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها، وغاية المذاهب وأغوارها، وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته أولا على علم الكلام وما احتويته من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام، وما ازدريته ثالثا من طريق أهل التفلسف، وما ارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف، وما تنحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما دعاني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة، فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك، فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه، ومستوقفا منه وملتجئا إليه:

اعلموا- أحسن الله إرشادكم، وألان إلى قبول الحق انقيادكم - أن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق: بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] ولم أزل في عنفوان شبابي - مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته حوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة، لأميز بين كل محق ومبطل ومستن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع باطنيته، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيا إلا وأقصد على فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية

كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا أحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدًا إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته. ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني من أول أمري وريعان عمري، غريزة من الله وفطرة وضعها الله في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانكسرت عني العقائد المروية على قرب عهد مني بالصبا، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود، وصبيان الإسلام لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» فتحرك باطني إلى طلب الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات، فقلت في نفسي أولاً: إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، ولابد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوَهْم، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنًا للنص مقارنة لو تحدى بإظهَار بطلَانه مثلاً من يقلب الحجر ذهبًا والعصا ثعبانًا لم يورث ذلك شكًا وإمكانًا، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل: الواحد أكثر من العشرة، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانًا وقلبها وشاهدت ذلك منه، ولم أشك في معرفتي لكذبه، ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، وأما الشك فيما علمته فلا. ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به، وكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني، ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات، فقلت: الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات، فلابد من إحكامها أولاً لأتبين أن يقيني بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، وهو أمان محقق لا تجوز فيه ولا غائلة له، فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وأنظر عل يمكنني أن أشكك نفسي فيها! فأنتهي بعد طول التشكك بي إلى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات، وأخذ يتسع الشك فيها، ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت ما أردت أن أصنفه، فصادفته علمًا وافيًا بمقصودة غير واف بمقصودي، ولم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمي على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا وأؤخر فيه أخرى، ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة إلا حمل عليها جند الشهوة جملة فيغيرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسبب ميلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخيل، وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها؟ فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض، والشأن العظيم الخالي عن التكدر والتنغيص والأمر السالم الخالي عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا تتيسر لك المعاودة؛ فلم أزل أتردد بين التجاذب بين

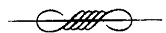
شهوات الدنيا والدواعي قريبا من ستة أشهر: أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة، في هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يومًا واحدًا تطييبًا للقلوب المختلفة إلى فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبته، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومري الطعام والشراب، وكان لا تنساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء مطمعهم في العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروح السر عن الهم المهم؛ ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن المال والجاه والأهل والأولاد، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام، حذرًا من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على غرضي في المقام بالشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبدًا، واستهزأ بي أئمة العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوّز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببًا دينيًا، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم، ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم في التعلق بي والإنكار على وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون هذا أمر سماوي ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم، ففارقت بغداد وفارقت ما كان معي من مالي ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال، ترخصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفًا على المسلمين، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لعياله أصح منه، ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبًا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي، ثم تحرك بي داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة النبي ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه، ثم صرت إلى الحجاز، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه، وآثرت حرصًا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي عنها فيدفعني عنها العوائق وأعود إليها، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي ينبغي أن نذكره لينتفع به أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسه من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، وبالجملة ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحرم في الصلاة استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى، وهو أقواها بالإضافة إلى

ما تحت الاختيار. انتهى.

قال العراقي: فلما نفذت كلمته وبعد صيته وعلت منزلته وشدت إليه الرحال وأذعنت له الرجال، شرفت نفسه عن الدنيا واشتاقت إلى الأخرى، فاطَّرحها وسعى في طلب الباقية، وكذلك النفوس الزكية، كما قال عمر ابن عبد العزيز، إن لي نفسًا تواقة: لما نالت الدنيا إلى الآخرة. قال بعض العلماء: رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده عكاز وركوة، فقلت له: يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلى شزرًا وقال: لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل:

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل	وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأشواق مهلا فهذه	منازل من تهوى رويدك فانزل

انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه





كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء

الحمد لله على ما خصص وعمم، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم.

سألت - يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها، وقرب لك مقامات الولاية تحلل معاليها - عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام وأمثال الأنعام، وإجماع العوام وسفهاء الأحلام وذعار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته، ونسبوا محليه إلى ضلال، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال؛ فإلى الله انصرافهم ومآبهم، وعليه في العرض الأكبر لإيقافهم وحسابهم، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف :١٩] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء :٢٢٧] ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس :٣٩] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف :١١] ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء :٨٣] ولكن الظالمون في شقاق بعيد، ولا عجب فقد ثوى أدلاء الطريق، وذهب أرباب التحقيق، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق، متشبثين بدعاوى كاذبة، متصفين بحكايات موضوعة، متزينين بصفات منمقة، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة، متعاطين الحجج غير صادقة؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر، وتآلفوا جميعًا على المنكر، وعدمت النصائح بينهم في الأمر، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر؛ إن نصحتهم العلماء أغروا بهم، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم؛ أولئك الجهال في علمهم، الفقراء في طولهم، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم، ولذلك لا تظهر مواريث الصدق، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية؛ لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء، ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء، وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب، وفي هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة، ولكن ليس هذا من بضائعهم، حجبوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل، والإصرار، ومحبة الدنيا، وإظهار الدعوى. فالجهل أورثهم السخف، والإصرار أورثهم التهاون، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة، وإظهار الدعوى أورثتهم الكبر والإعجاب والرياء ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج :٢٠] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة :١٢٠] فلا يغرنك - أعاذنا الله وإياك من أحوالهم - شأنهم، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح بنفسك تمردهم وطغيانهم، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم، فكأن قد جمع الخلائق في صعيد

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق :٢١] وتلا ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق :٢٢] فيا له من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقيل، ومتابعة الأباطيل؛ فأعرض عن الجاهلين، ولا تطع كل أفاك أثيم ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام :٣٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود :١١٨] ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس :١٠٩] ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص :٨٨]

ولقد أجبناك - بحول الله وقوته وبعد استخارته - عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأقلام، إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفًا على ألسنة الصدور والأصحاب، حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية الداخل وحديث الجالس، فساعدتنا أمنيتك، ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بيانا غيره مما عدوه مشكلًا، وصار لقولهم الضعيفة مخبلًا ومضللًا، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان؛ ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه في المزيد من الإحسان، إنه الجواد المنان.

ذكر مراسم الأسئلة في المثل

ذكرت - رزقك الله ذكره وجعلك تعقل نهيه وأمره - كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب، ولفظة التوحيد تنافى التقسيم في المشهود كما ينافي التكرير التعديد وإن صح انقسامه على وجه لا يندفع فهل تصح القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر، ورغبت من مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة، وانقسام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاوت، وما وجه تمثيلها بالجوز في القشور واللبوب؟ ولم كان الأول لا ينفع والآخر الذي هو الرابع لا يحل إفشاؤه؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن: إفشاء سر الربوبية كفر؟ أين أصل ما قالوه في الشرع؛ إذ الإيمان والكفر والضلال والتقريب والتبعيد والصديقية وسائر مقامات الولاية ودركات المخالفة إنما هي مآخذ شرعية وأحكام نبوية، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات؟ ومخاطبة الجمادات العقلاء؟ وبماذا تسمع تلك المخاطبة؟ أبحاسه الآذان أم بسمع القلب؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي؟ وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت؟ وما معني أن الله تعالى خلق آدم على صورته؟ وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون معتقدها منزهًا مجللًا؟ وما معني الطريق في ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[طه :١٢] ولعله ببغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى، وما معنى فاستمع بسر قليل لما يوحى؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره؟ وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي؟ أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص، ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجوزة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق، وما يسمع في النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه على أن يتخطى رقاب الصديقين؟ وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين؟ وما معني انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق؟ وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه؟ وما الذي يمنعه

من البقاء في الموضع الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه؟ وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء: ولو وصلوا ما رجعوا، وما وصل من رجع. وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبًا ولا أكمل صنعًا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلًا يناقض الجود وعجزًا يناقض القدرة الإلهية؛ وما حكم هذه العلوم المكنونة هل طلبها فرض أو مندوب إليه أو غير ذلك؟ ولم كسيت المشكل من الألفاظ واللغز من العبارات؟ وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبر به ويمتحن، فما بال من ليس شارعا؟ انتهى جملة مراسم الأسئلة في المثل.

فأسأل اله تعالى أن يملي علينا ما هو الحق عنده في ذلك، وأن يجرى على ألسنتنا ما يستضاء به في ظلمات المسالك، وأن يعم بنفعه أهل المبادئ والمدارك، ثم لابد أن أمهد مقدمة، وأؤكد قاعدة، وأؤكد وصية.

أما المقدمة: فالغرض بها تبيين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور فنذكر ما يغمض منها ونذكر المقصد بها عندهم، فرب واقف على ما يكون من كلامنا مختصا بهذا الفن في هذا وغيره فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ.

وأما القاعدة: فنذكر فيها الاسم الذي سلوكنا في هذه العلوم عليه، والسمت الذي ننوي بمقصدنا إليه؛ ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم.

وأما الوصية: فنقصد فيها تعريف ما على من نظر في كلام الناس وأخذ نفسه بالإطلاع عن أغراضهم فيما ألفوه من تصانيفهم، وكيف يكون نظره فيها وإطلاعه عليها واقتباسه منها، فذلك أوكد عليه أن يتعلمه من ظهورها فشردوا عنها وغلقت في وجوههم الأبواب وأسدل دونهم الحجاب، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب وولجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب الغيوب، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



المقدمـة

اعلم أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجماهير والعموم، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع، والصنائع على ضربين: علمية، وعملية، فالعملية: كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم، ويتعاطون أصول صناعتهم. والعلمية: هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة بما تحرر من الموازين، ولأهل كل علم أيضًا ألفاظ اختصموا بها لا يشاركهم فيها غيرهم إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما في اللفظ دون المعنى، أو في المعنى وصورة اللفظ جميعًا، وهذا يعرفه من بحث عن مجاري الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع. وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب في التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين: مبدأ، غاية؛ وما لم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدهم، ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذي هو عند من خلفهم، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لا نسميها عندهم صناعة، ونسميها بذلك عند ضبطها بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسمين بالسادة، والملقبين بالصوفية والمتشبهين بالفقراء، والمعروفين بالرقة، والمعزى إليهم العلم والعمل: ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها فيما يتذاكرونه أو يذكرونه، ونحن إن شاء الله نذكر ما يغمض منها، إذ قد يقع منا عندما نذكر شيئًا من علومهم ونشير إلى غرض من أغراضهم؛ فلم نر أن يكون ذلك بغير ما عرف من ألفاظهم وعباراتهم، ولا حرج في ذلك عقلاً وشرعًا، ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير.

فمن ذلك: السفر، والسالك، والمسافر، والحال، والمقام، والمكان، والشطح، والطوالع، والذهاب، والنفس، والسر، والوصل، والفصل، والأدب، والرياضة، والتحلي، والتخلي، والتجلي، والعلة، والإنزعاج، والمشاهدة، والمكاشفة، واللوائح، والتلوين، والغيرة، والحرية، واللطيفة، والفتوح، والوسم، والرسم، والبسط، والفيض، والفناء، والجمع، والتفرقة، وعين التحلم، والزوائد، والإرادة، والمريد، والمراد، والمهمة، والغربة، والمكر، والاصطلاح، والرغبة، والرهبة، والوجد، والوجود، والتواجد.

فتذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن بمشيئة الله تعالى، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم على علومهم أكثر مما ذكرنا، فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورًا تتعلم به إذ طرأ عليك ما لم نذكره لك ههنا، إذ لها مبحث وإليها سبيل، فتطلبه بعد ذلك على وجهه.

فأما السفر والطريق: فالمراد بهما سفر القلب بآلة الفكر في طريق المعقولات، وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر في لغتهم، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع وخرق حجب الأمر والنهي، وتعلق الغرض فيها والمراد بها ومنها، فإذا خلفوا نواهيها وقطعوا معاطبها، أشرفوا على مفاوز أوسع، وبرزت لهم مهامة أعرض وأطول: من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية: النفس والعدو والدنيا؛ فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها في الانتساب، وأعرض بغير حساب: من

ذلك سر القدر وكيف خفي بحكم في الخلائق وقادهم بلطف في عنف، وشدة في لين، وبقوة في ضعف، وباختيار في جبر، إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المخلفون عنه طرفة عين، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه، والإشراف على الملكوت الأعظم ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب: مثل العلم الإلهي، واللوح المحفوظ، واليمين الكاتبة وملائكة الله يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه ويقدسونه، وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات، ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق للكل والمالك للجميع والقادر على كل شيء، فتغشاهم الأنوار المحرقة، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف، ويحجبون حيث غاب أهل الدعوى، ويبصرون ما عمى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى.

والحال: منزلة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته. وقيل: هو ما يتحول فيه العبد ويتغير مما يرد على قلبه فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال. وقال بعضهم الحال لا يزول، فإذا زال لم يكن حالاً.

والمقام: هو الذي يقوم به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات، فمتى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينقل منه إلى غيره.

والمكان: هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية، فإذا كمل العبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم.

مقامك من قلبى هو القلب كله فليس لشيء فيه غيرك موضع

والشطح: كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى، إلا أن يكون صاحبه محفوظًا.

والطوالع: أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ونورها فيطمس سلطان نورها الألوان، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب.

والذهاب: هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها.

والنفس: روح سلطة الله على نار القلب ليطفئ شرها.

والسر: ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق. وسر السر: ما لا يحس به السر، والسر ثلاثة: سر العلم، وسر الحال، وسر الحقيقة، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة.

والوصل: إدراك الفائت. والفصل: فوت ما ترجوه من محبوبك.

والأدب ثلاثة: أدب الشريعة: وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة، والثاني: أدب الخدمة وهو التشمر عن العلامات والتجرد عن الملاحظات، والثالث: أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة.

والرياضة اثنان: رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطب وهو صحة المراد.

والتحلي: التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال. والتخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، والتجلي: هو ما ينكشف من أنوار الغيوب.

والعلة: تنبه عن الحق، والانزعاج: انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة.

والمشاهدة ثلاثة: مشاهدة بالحق: وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة للحق: وهي رؤية الحق في الأشياء، ومشاهدة الحق. وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب.

والمكاشفة أتم من المشاهدة وهي ثلاث: مكاشفة بالعلم وهي تحقيق الإصابة بالفهم، ومكاشفة بالحال وهي تحقيق رؤية زيادة الحال، ومكاشفة بالتوحيد وهي تحقيق صحة الإشارة.

واللوائح: ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها.

والتلوين: تلوين العبد في أحواله. وقالت طائفة: علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة. وقال آخرون: علامة الحقيقة التلوين لأنه يظهر فيه قدرة فيكسب منه العبد الغيرة.

والغيرة: غيرة في الحق، وغيرة على الحق، وغيرة من الحق؛ فالغيرة في الحق برؤية الفواحش والمناهى، وغيرة على الحق هي كتمان السرائر، والغيرة من الحق ضنه على أوليائه.

والحرية: إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبدًا وعند غيره حرًا.

واللطيفة: إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم ولا تسعها العبارة.

والفتوح ثلاثة: فتوح العبادة في الظاهر وذلك سبب إخلاص القصد، وفتوح الحلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق.

والوسم والرسم: معنيان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل.

والبسط: عبارة عن حال الرجاء، والقبض: عبارة عن حال الخوف.

والفناء: فناء المعاصي، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك.

والبقاء: بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء.

والجمع: التسوية في أصل الخلق. وعن آخرين: معناه: إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق. والتفرقة: إشارة إلى اللون والخلق، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري سبحانه، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر، فإذا جمع ينهما فقد وحد.

و؟ين **التحلم**: إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء.

ؤ**الزوائد**: زيادات الإيمان بالغيب واليقين.

والإرادات ثلاثة: إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التمني، وإرادة الحظ منه وذلك موضع الطمع، وإرادة الله سبحانه وتعالى وذلك موضع الإخلاص والمريد: هو الذي صح له الابتلاء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم. والمراد. هو العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال المقامات.

والهمة ثلاثة: **همة منية**: وهي تحرُّك القلب للمنى، وهمة إرادة: وهي أول صدق المريد، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل، فإن المراد إذا والخطب جد، والآخرة مقبلة والدنيا

مدبرة، والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم. والطريق سد. وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد. وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد، فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء. وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون. وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان. وأصبح كل واحد يعاجل حظه مشغوفا فصار يرى المعروف منكرا والمنكر معروفا. حتى ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمسًا. ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام. أو جد يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام. أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام. إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام، فأما علم طريق الآخرة: هو ما درج عليه السلف الصالح وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام.

والغربة ثلاثة: غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد. وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة.

والاصطلام: نعت وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها.

والمكر ثلاثة: مكر عموم وهو الظاهر في بعض الأحوال، ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال، ومكر خفي في إظهار الآيات والكرامات.

والرغبة ثلاثة: رغبة النفس في الثواب، ورغبة القلب في الحقيقة، ورغبة السر في الحق.

والرهبة: رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق.

والوجد: مصادقة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده.

والوجود: تمام وجد الواجدين، وهو أتم الوجد عندهم. وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال: الوجد ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك، والوجود ما تجده من الله الكريم، والوجد عن غير تمكين، والوجود مع التمكين والتواجد: استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد.

القاعدة: وأما القاعدة التي ينبني عليها هذا الفن بأسرة: فذلك اجتذاب أرواح المعاني، والإشارة إلى البعد في القرب قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى قصدًا ذاتيا، لا على ما سلكه أرباب علوم الظاهر، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة، ومعرفة العلوم في الانصراف، ومصاحبة القدر بالمساعدة وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس: الذاتي والحسي والخيالي والعقلي والشبهي حسبما فهم من الشرع وثبت معناه في المحفوظ من الوحي، وقلما أردك شيء من العجز والعلم لا ينال براحة الجسم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۞ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٤-٥] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

والوصية: أيها الطالب للعلوم والناظر في التصانيف والمستشرق على كلام وكتب الحكمة: ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ولله وفي الله، لأنه إن لم يكن نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره من فهم أو علم أو حفظ أو إمام متبع أو صحة ميز أو ماشاكل ذلك، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ونكصت على عقبيك وخسرت في الدارين صفقتك، وعاد كل هول عليك ﴿فَمَن كَانَ

يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف :١١٠] وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ولاحظت بالحقيقة سواه، ورؤية غيره دونه تعمى القلب وتهتك الستر وتحجب اللب. وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغنى عنه في الظاهر وله إليه كثير حاجة في الباطن، ولا تقف به حيث وقف به كلامه؛ فالمعاني أوسع من العبارات، والصدور أفسح من الكتب والمؤلفات، وكثير علم مما لم يعبر عنه، واطمح بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصد ولا تقطع له بصحة ولا تحكم عليه بفساد، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه حتى يزول الإشكال عنك بما يتيقن من معانيه وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة واطلب المعاذير للسيئة، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ما تجده، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر، فلكل عالم عورة وفي بعض ما يأتي به احتجاج وناهيك ما جرى بين ولي الله تعالى الخضر وكليمه موسى على نبينا وعليهما السلام. وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلاف، فخذ ما ظهر لك علمه ودع ما اعتاص عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله عز وجل، فهذه وصيتي لك فاحفظها وتذكيري إياك فلا تذهل عنه:

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف

وأزيدك زيادة تقتضي التعريف بأصناف العلماء لكي تعرف أهل الحقيقة من غيرهم، فلك في ذلك أكبر منفعة ولي في وصفهم أبلغ غرض. قال علماؤنا: العلماء ثلاثة: حجة، وحجاج ومحجوج؛ فالحجة: عالم بالله وبأمره وبآياته مهتما بالخشية لله سبحانه، والورع في الدين والزهد في الدنيا والإيثار لله عز وجل المستقيم. والحجاج: مدفوع إلى إقامة الحجة وإطفاء نار البدعة قد أخرس المتكلمين وأفحم المتخرصين، برهانه ساطع، وبيانه قاطع، وحفظه ما ينازع شواهده بينه ونجومه نيرة، قد حمى صراط الله المستقيم. والمحجوج: عالم بالله وبأمره وبآياته، ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه، وحجبه عن الورع والزهد والرغبة والحرص، وبعده من بركات علمه محبة العلو والشرف، وخوف السقوط والفقر، فهو عبد لعبيد الدنيا، خادم لخدمها، مفتون بعد علمه، مغتر بعد معرفته، مخذول بعد نصرته شأنه الاحتقار لنعم الله، والازدراء لأوليائه، والاستخلاص بالجهال من عباده. وفخره بلقاء أميره وصلة سلطانه، وطاعة القاضي والوزير والحاجب له قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به ومراده من الدنيا مثله، في مثل هذا ضرب الله المثل حين قال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف :١٧٥-١٧٦] فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه؛ وويل لمن تبعه في دينه، وهذا هو الذي أكل بدينه غير منصف لله سبحانه في نفسه ولا ناصح له في عباده، تراه إن أعطى من الدنيا رضي بالمدحة لمن أعطاه، وإن منع رش بالدم من منعه، وقد نسى من قسم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهدى. وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه فقصدي أن يعلم من ذهب من الناس ومن يبقى، ومن أبصر الحقائق ومن عمى، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا وإن كان بقى منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة.

غاب الذين إذا ما حدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن همو حدسوا

على غربته وأعز شيء على وجه الأرض؛ وفي الغالب ما يقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى وحماقة واجتراء وعجب بغير فضيلة ورياء؛ يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام؛ وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق؛ وأخدان لعوائد السوء وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين:

مثل البهائم جهال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا

كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنباحة اللهثا

﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]؛ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢]:

أولو النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ في جواب ما سألت عنه على نحو ما رغبت فيه، وأستوهب الله نفوذ البصيرة وحسن السريرة وغفران الجريرة؛ وهو ربي ورب كل شيء وإليه المصير.

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جري الرسم في الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع تشبيهًا لموافقة الغرض في التمثيل به وذكرت أن المعترض وسوس أو بالخواطر هجس بأن لفظ التوحيد ينافي التقسيم؛ إذ لا يخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذي ليس بزائد عليه فذلك لا ينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك. وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمة إذا وجد فيهم؛ فذلك أيضًا لا ينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل؛ وذلك لضيق المجال فيه، ولهذا لا يتصور فيه مذاهب، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين: أحدهما: الشرك، والثاني: الإلباس، وكلا الطرفين كفر؛ والوسط إيمان محض، وهو أحد من السيف وأضيق من خط الظل، ولهذا قال أكثر المتكلمين بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين؛ وإنما تختلف طرق لإيمانهم التي هي علومهم. ومذهبهم في ذلك معروف، ونحن لا نلم في هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ومقابلة الأقوال، بل بقصد إزالة غير الإشكال ورد ما طعن به أهل الضلال والإضلال.

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه ههنا بشيء قدح به المعترض أو هجس به الخاطر، وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ما تتميز به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال، وكل حالة منها تسمي توحيدًا على جهة تنفرد بها لا يشاركها فيها غيرها، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمي لأجله موحدًا ما دام يظن أن قلبه موافق للسانه، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما شرع في الحكم، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ولا برهان يربط به سمي أيضًا موحدًا، على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمي من يعتقد مذهب الشافعي شافعيًا والحنبلي حنبليًا، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسعي من أجله بشكوكه العارضة له فيسمي

موحدًا لأنه عارف به، يقال: جدلي ونحوي وفقيه، ومعناه: يعرف الجدل والفقه والنحو، وأما من استغرق علم التوحيد قلبه، واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فصلًا لغيره إلا على طريق التبعية له، ويكون شهود التوحيد لكل ما عداه سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبًا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة في سائر العلوم؛ فهذا يسمى موحدًا ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه.

فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المنفرد: فلا يضربون في التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله في الحياة، إلا ما دام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه، كما نفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل.

وأما الصنف الثاني وهم أرباب الاعتقاد: الذين سمعوا النبي ﷺ أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله المنبئ عنه، فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل، فنسبوا إلى التوحيد. وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم، وبمنزلة «من كثر سواد قوم فهو منهم»

وأما الصنف الثالث والرابع: فهم أرباب البصائر السلمية الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات، فتأملوها فرأوا على كل منها خطا منطبعا فيها ليس بعربي ولا سرياني ولا عبراني ولا غير ذلك من أجناس الخطوط، فبادر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلم منهم من استعجم عليه، فإذا هو الخط الإلهي المكتوب على صفحة كل مخلوق المنطبع فيه من مركب ومفرد وصفة موصوف وحي وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن ومظلم ونير، وهو الذي يسمي تارة بعلامة وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية، كما قال الشاعر، ولا أدري عن سماع أو رؤية قلب:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فلو قرأوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق في ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير؛ فتركوا الكتابة والمكتوب وترقوا إلى معرفة الكاتب الذي أحدث الأشياء وكونها ولا يخرج عن ملكه شيء منها، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده، فوجدوه كما وصف نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فخلصت لهم التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره، وعقلت أنها عقلت توحيده فسبحان من يسرها لذلك وفتح عليها بما ليس في وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير، لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موحدًا لديه فيما لا يزال وهم المقربون، والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موحدًا لنفسه فيما يزل وهم الصديقون، وبينهما تفاوت كثير.

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم: فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده؛ فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان في زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف، وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام. وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا في عقده أو عالما به، والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية

في الكتاب؛ فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوة، أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ، فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون وهم أهل المرتبة الثالثة، والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة، وهذا التقسيم ظاهر الصحة، إذ هو دائر بين النفي والإثبات، ومحصور بين المبادئ والغايات، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم، إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ومزيد شرح وبسط بيان تعرف منه بإذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجرى به الواحد الحق على القلب والسان.

بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول: أرباب النطق المجرد أربعة أصناف: أحدهم: نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول ﷺ ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به لما لم يعلموه ولا يتصورون صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدو لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل، وما بعد ذلك، فإن التزموها فارقوا راحات أبدانهم العاجلة وفراغ أنفسهم، وأن يلتزموا شيئا من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه، ومثل هؤلاء مثل من يريد الطب أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والأنكحة أو كثير منها، فيحتاج إلى أن يتركها أو يرتكبها على رقية وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأسا. سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به وهل اعتقدوه فيقولون: لا نعلم فيه ما يعتقد، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير وانخراطًا بإظهار القول في الجم الغفير ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ولا شك أن هذا الصنف الذي أخبر ﷺ عن حاله بمسألة الملكين أحدهم في القبر، إذ يقولون: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لا دريت ولا تليت، وسماه النبي ﷺ الشاك والمرتاب. والصنف الثاني: نطق كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم مالا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد، وذلك مثل ما قالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء - إن عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه، وكانوا في زمنه، فحرق منهم جماعة، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب نطقة مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة، وقد رأينا حديثا عنه ﷺ في ذلك «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة».

والصنف الثالث: نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم، ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد، واستبطنوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار، وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر؛ فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤-١٥].

والصنف الرابع: قوم لم يعرفوا التوحيد وما نشأوا عليه، ولا عرفوا أهله، ولا سكنوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين والإقرار بهما،

فقالوا: لا نعلم مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى المأمور به من النطق، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلا مهلة، فسكنوا إلى ما قيل لهم ونطقوا بالشهادتين ظاهرًا وهم على الجهل بما يعتقدون فيها، فاخترم أحدهم من حينه من قبل أن يأتي منه استفهام أو تصور يمكن أن تكون له معه معتقد فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل، والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحكم على غيب الله سبحانه، وربما كان هذا الصنف في الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا إلى هذا النطق فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ثم يدعون إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة، ومثل هذا أيضًا في الوجود كثيرًا ولا أحكم على أحد مثله بخلود في النار، ولا بد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيل العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبي ﷺ في حديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى: فرغت شفاعة الملائكة والنبيين وبقيت شفاعتى وهو أرحم الراحمين، فيخرج من النار أقوامًا لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل، والحديث يطول وهو صحيح [1]، وإنما اختصر منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثاني والثالث أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ولا يكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين، فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

(فصل) ولما كان اللفظ المنبئ عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به في حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاه إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه، واليد أن تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع في البيوت ولا يحضر في المجالس أي مجالس الطعام، ولا تشتهيه النفوس إلا ما دام منطويًا على مطعمه صونًا على لبه، فإذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منطو على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لا يصلح لشيء ولم يبق فيه غرض لأحد وهذا لإخفاء في حصته، والغرض بالتمثيل تقريب ما غمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه، فكأن يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقًا للواحد المراد منه.

(فصل) فإن قلت فما الذي صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى يعلموا، أو عن الاعتقاد حتى يخلصوا من عذاب الله وهم في الظاهر قادرون على ذلك؟ وما المانع الذي منعهم وأبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم نفقة؟ فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابًا عظيمًا ويهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد. ولكن لابد إذا وقع في الأسماع ووعته قلوب الطالبين واشتاقت إلى سماع الجواب عنه أن نورد في ذلك قدر ما يقع به من الكفاية وتقنع به النفوس بحول الله وقوته. نعم ما سبق في العلم القديم لا تجرى بخلافه المقادير. من ذلك فهم بإرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية والشيم الذئابية والطباع السبعية وغلبتها عليهم. والملائكة لا

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري. أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، ومسلم في الإيمان (١٨٣).

تدخل بيتًا فيه كلب[(١)] . كذلك قال عليه الصلاة والسلام. والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده وأعدها لأن تكون خزائن علمه، ومشارق مكنوناته، ومهبط ملائكته، ومغاشي أنواره، ومهاب نفحاته، ومجال مكاشفاته، ومجارى رحمته، وهيأها لتحصيل المعرفة به فمتى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله. إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه وعنه بالباقيات الصالحات. ولولا تلك الأخلاق المذمومة التى حلت فيهم وهي التى ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله على حلولها فيها وهى لا تخلو من خير تتنزل به ويكون معها فحيثما حلت حل الخير في ذلك القلب بحلولها وإنما هي لها فحيثما وجدت قلبًا خاليًا ولو حينًا من الدهر وزمنًا نزلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير. فإن لم يظهر على الملائكة ما أزعجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ثبتت عنده وسكنت فيه ولم تبرح عنه وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير. فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها، واستعانت بغيرها حتى يمتلئ البيت من متاعها وجهازها، وهو الإيمان بالله والصلاح وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ويثبت فيه خلقًا مذمومًا لا يوجد إلا في الكلب وهو متاع الشيطان قاتله الله وطرده عن ذلك المحل، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصره وهو عزم اليقين من قبل الروح، انهزم الملك وأخلى البيت ونهب المتاع وخرب البيت بعد عمارته وأظلم بعد نوره وضاق بعد انشراحه، وهكذا حال من آمن وكفر، وأطاع وعصى؛ وضل واهتدى.

فإن قلت: فَمَيِّزْ لي هذه الأخلاق المذمومة التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معاني التوحيد، ومنعم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئًا من الخيرات الكائنة معها. فاعلم أن الأخلاق التى لا يجتمع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها وهي الطمع في غير خطير والحرص على فان حقير. وأما الصنف الأول فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم ما رغبوا فيه من راحاتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم فأبقوا أمرهم على ما هم عليه. وأما الصنف الثاني والثالث فصدهم أيضًا خوف وجزع وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع، واستثقالاً لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه، وفرارًا من شرائطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمتثلوه، والكلب ما ذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التى هي الطمع في الخسائس والجزع من الصبر على ما بعده من الفضائل حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتًا فيه كلب.

فإن قلت: فكيف آمن من كفر، وأطاع من عصى، واهتدى من ضل، إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما يثبتون من الأخلاق المذمومة التى هي كلاب نابحة وذئاب عادية وسباع ضارية؟ وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهي لا تدخل موضعًا يحل فيه شيء مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده من حديث الإمام علي وأبو داود في كتاب الطهارة.

ومن لم يخلق مؤمنًا معصومًا فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم. فاعلم أن هذا يستدعى أصنافًا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم والقول والمعنى في جواب ما سألت عنه: أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات، ولتواتر الخير عليها فترات، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبًا خاليًا ولو زمنًا فر ودخل فيه وأراه ما عنده من الخير، فإن صادف منه قبولاً ولما عرض عليه من الخير تشوقًا ونزوعًا أورد عليه ما يملأ ويستغرق لبه، وإن صادف منه صحوًا وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة بالأخلاق الكلابية استعانة رحل عنه وتركه ولهذا قيل: ما خلا لب عن لمة ملك أو نزعة شيطان.

فإن قلت: فأي بيت فهم عن النبي ﷺ في الخطاب، وأي كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان. فاعلم أن الحديث خارج على سبب، ومعناه وجملته: أن المقصود بالإخبار هو بيت اللبن، وكلب الحيوان معلوم ولا بيتك في ذلك، ولكن يستقرأ منه ما قلناه ويستنبط من مفهومه ما نبهناك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه، ولا نكر في ذلك إذ دل عليه العلم وجملة الاستنباط، ولم تمجه القلوب المستضاءة، ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة؛ فلا تكن جاحدًا ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد فكثيرًا ما ورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى ما في معناه ومشابه له من الجهة التى تصلح أن يعديها إليه، ولولا ذلك لما قال النبي ﷺ: «ربُ مبلغ أوعى من سامع وحامل فقه إلى من هو أفقه منه»[(١)].

فإن قلت: فقد قال النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة»[(٢)]. وعلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه، فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ما ترقى من الحديث الآخر؟ فهذا كما قيل: الحديث شجون وأتبعنا هذا الباب ما يقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه، نعم يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه، ويكون هذا الحديث منبهًا عليه، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة وعبدت من دون الله عز وجل، وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضي بذلك، ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦] فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ما عبد من دون الله سبحانه، أو ما حكى به ما هو على مثاله، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذي هو بيت بناه الله ليكون مهبطًا للملائكة ومحلًّا للذكرى ومعرفة عبادته وحده دون غيره؛ فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقر به الملائكة أيضًا. فإن قيل: فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عمومًا وما ذكرته تعليلًا ينبغى أن لا يقتضى إلا منافرة ما عبد أو ما عبد أو ما نحت على مثاله؟ قلنا: تشابهت الصورة المنحوتة كلها في المعنى الذي قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح، وما نحت للعبادة إنما قُصد به تشبيه ذي روح؛ فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منفرة للملائكة.

فإن قيل: فما وجه الترخيص فيما رقم في ثوب؟ فذلك لأنها ليست مقصودة في نفسها، وإنما المقصود الثوب الذي رقمت فيه.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم (٢٦٥٦)، وابن ماجه في المقدمة (٢٣١) وهو حديث صحيح.
(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة.

فإن قيل: فما بال الثياب رخص في محاكاتها بالتصوير وذات أنواط العرب مشهورة معلومة؟ فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة في أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يومًا في السنة فاخر ثيابها وحلى نسائها لأجل اجتماعها عندها وراحتها في ذلك اليوم؛ ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام، ولو كان ذلك ما سأل أصحاب رسول الله ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط[1] حتى أنكر النبي ﷺ ذلك عليهم، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلى رضي الله عنه، ولم يعبدوا ما نُحت على شكل النبات، فلم تُعبد من هذه إلا ذات روح فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها، فله الحمد وهو أهله.

بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين، فقد انقسموا في الوجود إلى ثلاثة أصناف: أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه في أنفسهم، ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم واعتياص طرق ذلك عليهم، ويقع عليهم اسم الموحدين، وتحققنا وجود أمثالهم كثيرًا على عهد سيد المرسلين ﷺ والسلف الصالحين رضي الله عنهم، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والعزوف عنه. ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج، بل تركوا على ما هم عليه، وهؤلاء عندي معذورون بعدهم مقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦] لا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال، وسنبدى لك طريقًا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل. والصنف الثاني: اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق واعتقدت مع ذلك أنواعًا من المخاييل قام في مخيلتها أنها أدلة وطأتها براهين وليست كذلك، وقد وقع في هذا كثير ممن يشار إليه فضلاً عمن دونهم، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أصغوا لما يأتي به ويترفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم أو رداءة الاعتقاد وعندهم أن جميع تلك المخاييل في باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم، ومنهم من يكون دليله خبرًا له، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح، ولعمري إنهم ينبغي إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقعوا في شيء من الضلال أن يتركوا على ما هم عليه ولا يحركوا بأمر آخر، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة يعسر انحلالها أو يقعوا في تكفير مسلم وتضليله، بل هناك أسباب كثيرة. واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس؛ فمن رغب في أكملتها لم يقنع بدونها، وإذا حصل له ذلك قوى به، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ما هو أعلى من ذلك ضعف، ولكنه يعيش عيش الطفيف وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها، أو يجدها ولكنها تكون مشابة ممن جاء بمضرة بدعة وسموم كفر، فلا تذهل عما يشار

(١) الترمذي في الفتن. وقال: حسن صحيح.

لك إليه، وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان، وبين الصنف الثاني والأول كل التفاوت، من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلًا، غير أنهم أوثق رباطًا من الأولين، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا وانحل رباط عقدهم، وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون، فلهذا كانوا أحسن حالاً. والصنف الثالث: أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم، وقدموا النظر أيضًا، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ما لو نظروا لعلموا، ولو استدلوا لتحققوا، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا، ولكنهم آثروا الراحة ومالوا إلى الدعة، واستبعدوا طريق العلم، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه، وقنعوا بالقعود في حضيض الجهل، فهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس في البديهة، ويتردد في حالهم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين في العوام على الإطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم، ولعلك تقول: إن مذهبهم المشهور أن المحل لا يخلو عن الصفات إلا إلى ضدها، فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر، كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون، وكذلك الحياة والموت، والعلم والجهل، وسائر ما له من الصفات. قلنا: فلئن صح ذلك في الصفات التي هي أعراض فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان والكفر، والهداية والضلال، والبدعة والسنة، ربما كانت ليست من قبيل الأعراض. وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك في شعوب ما نورد على ذلك، ومنهم من أوجب في الشرع جار على هذا النحو، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم؛ لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة في صحة الإيمان، وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال، وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية، ولم يشعروا بذلك حيث قالوا: إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه، وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرًا ولوجدوا أنفسهم عارفين بذلك. واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما افتقر الناس إلى النسبية ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الفيئة، ومثال هذا كمن نسي شيئًا كان معه أو إنسانًا نصحه أو رآه فنسيه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك تذكر، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفًا بما غاب عنه، ولولا عرفانه به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة وطائفة من المتكلمين أيضًا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس غرضنا في هذا الموضع، وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه في الإحياء أهل الغلول والأغلال، فلا يفتح مثل هذا الباب، وقد أبدينا من وجه ذلك في مراقي الزلف ما يغني فيها بإذن الله عز وجل.



فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تتمة ما جرى، فلتعلم أن ما منهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال: لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضروري. فأصفى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب، ولكنه على طريق التفاوت كما سبق، الحالة الثانية: أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف إذا نفر ولم ننصف إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمنًا أو مسلمًا أن يعتقد وجود الواحد فقط، أو يعتقد أنه موجود حتى لا غير، وأمثال هذه التقديرات، ويخلو عن اعتقاد باقي الصفات خلوًا كاملاً لا يخطر بباله ولا يعتقد فيها حقًا ولا باطلاً ولا صوابًا ولا خطأ، ولكن التقدير الذي يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره، والحالة الثالثة أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة، ويكون فيما يعتقد في باقي الصفات على ما لا يوافق الحق ما هو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح، فالذي يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام، وسواء في ذلك الصنف الأول والثاني من أهل الاعتقاد، ويبقي الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه، وأما أهل الحالة الثانية وهى الاقتصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال، وأركانهما فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم في صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام، والمتأخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل، وأظهر الإقرار بنبيه ﷺ من الإسلام، ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه لو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل، هل له إرادة أو بقاء أو كلام أو ما شاكل ذلك؟ وهل له صفات معنوية ليست هي هو ولا هي غيره؟ ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة من حكم الإسلام والنبي ﷺ قد رفع القتال والقتل وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها، وهذه الكلمات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر وعلى البديهة من غير نظر، ثم سمعنا عمن قالها في صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والكف عن أذى المسلم، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها، ولأهل الله تعالى عالم بعلم أو عالم بنفسه وهو باق ببقاء أو باق بنفسه وأشباه هذه المعارف، ولا يدفع ظهور هذا إلا معاند أو جاهل لسيرة السلف وما جرى بينهم، ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبي أن يذعن لتعلم ما زاد على ما عنده لم يفت أحد بقتله، ولا استرقاقه، والحكم عليه بالخلود في النار عسر جدًا، أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة [1]، ولعلك تقول: قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها، ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقدها، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقو له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمي هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ، وفي مثله يخاف أن يطلق عليه اسم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، وأبو داود (٣١١٦).

الكفر، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل أنه يقول في الآخرة: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان، إلى أن خرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدرك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين، لأن التقدير وقع في الإيمان لا في الأعمال.

فإن قلت: فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها؟ قلنا: قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونبهناك على بُعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك لبدا له أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصوره عن معرفة شرطها في إيمان غيره، ولآثر من حسه الركون إلى ما رأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب والعدل عن مذهب ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم لم يبقوا اسم الكفر عليهم ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه، ثم يحكى فيه بالقتل والاسترقاق، فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ما قالوه ونقص ما مالوا إليه، فلنراجع إلى ما نحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل. وأما أرباب الحالة الثالثة - وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها - فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا ولإسلامهم حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه، إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر، لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك، فإن أمكن ردهم في الدنيا وزجرهم عنه إن أظهروا المنع عن الإقلاع والرجوع بالعقوبة المؤلمة دون قتل كان ذلك، وإن قالوا بالموت لم نقصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم، والله أعلم بالناجي والهالك من خلقه، والمطيع والعاصي من عباده، هكذا ينبغي أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

فإن قلت: وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة، وقول النبي ﷺ في القدرية: «إنهم مجوس هذه الأمة» قوله ﷺ: «ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». وقال عن قوم: «يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية، أو من قول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» (١). والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئًا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه مما توجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق، فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبقى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين ﷺ، فهو عليه الصلاة والسلام حيث قال: «مجوس هذه الأمة...». أضافهم إلى الأمة، ولم يقل مجوس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار فما أخبر أنهم خالدون فيها، وحين قال: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» فقد قال متصلاً بهذا القول وتتمارى في الفرق، وما موضع هذا التمارى من المثل الذي ضربه فيهم رسول الله ﷺ، فما لي أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى وتذكر شيئًا وتذهل عن غيره؟ عليك بالعدل تكن من أهله، واستعمل التفطن تشاهد

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٩١)، وابن ماجه (٩٢) في المقدمة.

العجائب وتفهم قول الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

(فصل) ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفًا وتفرده عن المعرفة قريبًا ممن رآه أبقى عليه شبه القشر الثاني من الجوز، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صونًا، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعامًا للمحتاج وبلاغًا للجائع، وبالجملة فهو لمن لا شيء معه خير من فقده، وكذلك اعتقاد التوحيد. وإن كان مجردًا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفًا، فهو في الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر، ومتى ركب أحد هذه فقد وقع في أعظم الحرج والمنكر.

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقرن

والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود (أحدها) أن يتكلم في الأسباب التى توصل إليه، والمسالك التى يعبر عليها نحوه والأحوال التى يتخذها بحصوله كما قدره العز ابن العليمى، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم. (والحد الثاني) أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة. (والحد الثالث) في ثمرات التوحيد وما يلقى أهله به ويطلعون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته، أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدقائقه وتذلله للصغير والكبير مأمور به مشدد في أمره متوعد بالنار على كتمه، فيه بعث الأنبياء، ومن أجله أرسل الرسل وببيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب، وليقع التفقه في القلوب بتحقيقه وتصديقه أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، وفيه أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة :٦٧] وإياه عنى رسول الله ﷺ بقوله: «من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[1] . وجميع ذلك محصور في اثنتين: العلم بالعبرة، والعمل بالسنة؛ وهما مبنيان على آيتين: الحرص الشديد والنية الخالصة. والسر في تحصيلهما اثنان: نظافة الباطن وسلامة الجوارح؛ ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة.

(وأما الحد الثاني) فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال، تشبيهًا بالرمز تارة وبالتصريح أخرى؛ ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر، ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرًا من المقصود وينكشف له جل ما يشار إليه، إذا كان سالمًا من شرك التعصب بعيدًا من هوة الهوى نظيفًا من دنس التقليد.

(وأما الحد الثالث) فلا سبيل إلى ذكر شيء منه إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار لا على التعليم، وإنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه، لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق واستنقاذهم من غمرة الجهل، والتنكيب بهم من مهاوى العطب، وقودهم إلى معرفة هذه المقام وما رواءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر وفوز الأبد، وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يومئذ الطريق وأول سبيل السعادة، فمن عجز عن ذلك كان على غيره أعجز، ومن سلكه على استقامة

---

(١) الترمذي في الإيمان (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالغالب عليه الوصول، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ومن وصل شاهد، ومن شاهد علم، وذلك غاية المطلوب ونهاية المرغوب والمحبوب ومن قعد حرم الوصول وما بعده ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] ومن غاب لم تنفعه الأخبار ولم يفده كثير من الأحاديث، وأيضًا فإن الإخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام، وذلك لغرابة العلم وكثرة غموضه ودقة معناه وعلوه في منازل الرفعة، وبعده بالجملة والتفصيل من جميع ما عهد في عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشئوا عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وحكى عن ابن عباس رحمه الله أنه قال: ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء، وأراد من لم ينكشف له شيء من علمها وحقائقها في الدنيا، أيضًا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد؛ فلهذا أمروا بالكتم إشفاقًا على من حجب من العلم؛ ولهذا قال سيد البشر ﷺ: «لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله؟»[1]. وقال ﷺ: «ما حدث أحدكم قومًا بحديث لم تصله عقولهم إلا كان عليهم فتنة» وعلى هذا يخرج قول المشايخ: وإفضاء سر الربوبية كفر، ورزقنا الله وإياكم قلوبًا واعية الخير، إنه ولى كل صالح، وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه في كتب الرواية والدراية وملئت منه الطروس وكثرت به في المحافل الدروس، وهو غير محجوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب، قد أمر الجهال به أن يتعلموه والعلماء أن يبذلوه ويعلموه، فلا نعيد فيه ههنا قولاً ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال، لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى محدودات الشرع، فلنثن العنان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام فنقول: أرباب المقام الثالث في التوحيد وهم المقربون على ثلاثة أصناف، على الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة، وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم وشاهدوه بغيب أرواحهم، ولاحظوا جلاله وجماله بخفي أسرارهم، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين وصفاء القلب، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته، وانقسامهم في تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلاً، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيرًا منه دون كماله، ومن حافظ الجميعه لكنه متلعثم فيه متوقف على الانهمار في تلاوته غير متوقف في شيء منه وكلهم ينسب إليه ويعد في المشهد والمغيب من أهله، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منها، وربما كان فيما يقرأ من الصفحات ما يغم عليه، ومن قارئ لجميعها متفهم لها لكن بنوع تعب ولزوم فكرة ومداومة عبرة. ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها، نافذ البصيرة في رؤية حقيقتها، مفتوح السمع تناطقه الأشياء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

في فراغه وشغله، وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم في الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء، ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال وعلمت لم سمي أهل هذه المرتبة مقربين فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم، والقرب والبعد ههنا عبارة عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور، وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما في هذا الفن، أحد الحالتين عماء البصيرة وانطماس القلب والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى، ويسمى هذا بعدًا، مأخوذًا من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب، وموضع العمارة والأنس والانقطاع في مهامه القفر، وأمكنة الخوف مظان الانفراد والوحشة. والحالة الثانية: عبارة عن اتقاد الباطن واشتعال القلب وانفساح الصدر بنور اليقين والمعرفة والعقل، وعمارة البيت بمشاهده ما غاب عنه أهل الغفلة واللهو، ولكنه يدل على أنه لم يصل؛ لعلك تقول: أرى بعض أئمة الكلام شغل عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا سهم، وأراهم عند الجمهور في الظاهر، وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى، وقادة الخلق إلى مراشدهم، ومجاهدون أرباب النحل المردية والملل الضالة المهلكة، وقد سبق في الإحياء أنهم مع العوام في الاعتقاد سواء، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم. فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ولكن بقى في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين، ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين: وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفارقوا عقود العوام، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام، والجدل علم لفظى وأكثره احتيال وهمى، وهو عمل النفس، وتخليق الفهم، وليس بثمرة المشاهدة والكشف، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث، وشاع في حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الخصم، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام والعلم المضارع للضروري بأن لا إله إلا الله، إذ لا فاعل غيره ولا حاكم في الدارين سواه، ومشاهده القلوب لما حجب من الغيوب، ومن أين للنازل طى المنازل؟ وما لعلم الكلام مثل هذا المقام، بل هو من خدام الشرع وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع، وله مقام على قدره ويقطع به، ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاستبصار، والمدار في أوقات الضرورات والاختيار وبين ما يراد لوقت حاجته إن دعت، وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذي ضلالة بما ينغص على ذوي اليقين العيش ويشغل الذهن ويكدر النفس، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم لا نقول في أكثرهم أنهم لا يحسنون غيره. ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس والمصلحة به - لتوجه الضرورة - أعم وأوكد، ولما كان نجم في وقتهم من البدع وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق وتجرؤ العوام مع كل ناعق، فرأوا الرد عليهم والمنازعة لهم والسعي في اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوي الكيد في احتيالهم، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب المقامات ووصف فقه الأرواح والنفوس وتفهم كل ناطق وجامد، فإن هذه كلها وإن كانت أسمى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص وهم مكفيون المؤنة، والعامة أحق بالحفظ وعقائدهم أولى بالحراسة، واستنفاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد، والتصدق على ذي بُلْغَة من العيش،

فكيف إن كان عن غناء، وأيضًا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام، بعد التبليغ من أهل الفساد والتمادي على الغي وسبيل الفساد، فكما لا يقال: السيف أبلغ حجة النبي ﷺكذلك لا يقال: علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء، وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم أخر كالفقه والحديث والتفسير، لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات وانقطع علم الشرع، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدل، يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذه عنهم الخاص والعام، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي ﷺلما خافوا من دروس الإسلام وإن يضعف ويقل أهله ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما لو كانوا أول مرة، فقد مات صاحب المعجزة ﷺ والمبعوث لدعوة الحق عليه الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والرباط في ثغر العدو والغزو في سبيل الله وضرب وجوه الكفرة بالسيف وإدخال الناس في دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهرًا وباطنًا، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ولهم بحالهم قيام، والعموم إن لم يكن مشتغلاً بهم وإذا بدا لهم محذرًا عن هلكاتهم وسائقًا بهم إلى مراشدهم وصلاحهم كان الهلاك إليهم أسرع، ثم لا يكون من بعد ذلك إن فسد حال العموم للخصوص قدر، ولا يظهر لهم نور ولا يقدرون على شيء كامل من البر، فلا خاصة إلا بعامة، ولقد كانت رعاية النبي ﷺبحال الجماهير أكثر، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد، واللطف بهم في تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ، وكان أهل القوة وذوى البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات، وكان هو ﷺيحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فما يمنعه منه، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم، وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن خاف عليهم أن يقعوا في تضييع الفرض فيكون عليهم كفل من الوزر، ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله، وكان عثمان رضي الله يقومه فلم ينهه، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حدثان عهد قومك بالكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم». وقال للأنصار: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم» ومع ذلك فالذي حفظ عنه ﷺوعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم لا تحصي، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم وتفقه مثلهم فاقصد تجد، وتصد لاقتباس المعارف تعلم، وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توقن: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد الصديقين

وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره، ولا اطلعوا في الوجود على سواه، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم

أجمعين فيما خصوا من المعرفة في هجيراهم، فكان هجير أبي بكر الصديق رضي الله عنه (لا إله إلا الله) وكان هجير عمر رضي الله عنه (الله أكبر) وكان هجير عثمان رضي الله عنه (سبحان الله) وكان هجير على رضي الله عنه (الحمد لله) فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الدارين غير الله سبحانه وتعالى، فلذا كان الصديق، وسمي به كما علمت، وكان يقول: (لا إله إلا الله) وكان عمر يرى ما دون الله صغيرًا مع الله في جنب عظمته فيقول: (الله أكبر) وكان عثمان لا يرى في التنزيه إلا الله تعالى إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول فكان يقول: (سبحان الله) وعلى لا يرى نعمة في الدفع والرفع والعطاء والمنع في المكروه والمحبوب إلا من الله سبحانه فكان يقول: (الحمد لله) وأهل هذه الرتبة على الجملة في حال خصوصهم فيها صنفان؛ مريدون، فالمريدون في الغالب لابد لهم من أن يحلوا في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين، ومنها ينتقلون، وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها: ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء، ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم.

فإن قلت: أليس الوجود مشتركًا بين الحادث والقديم والمألوه والإله، ثم معلوم أن الإله واحد والحوادث كثيرة؛ فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئًا واحدًا، ذلك على طريق قلب الأعيان، فتعود الحوادث قديمة، ثم تتحدث بالواحد فترجع هي هو، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما يغنى عن إطالة القول فيه. وإن كان على طريق التخييل للمولى لما حقيقة له، فكيف يحتج به؟ أو كيف يعد حالاً لولى أو فضيلة لبشر؟ الجواب عن ذلك: أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ولم تتحد بالفاعل، ولا اعترى الولي تخييل فتخيل ما لا حقيقة له، وإنما هو ولى مجتبي وصديق مرتضي، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين والكشف التام، وكشف لقبله ما لو رآه ببصره عاينًا ما ازداد إلا يقينًا، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به - على هذا السبيل - أحدًا من خلقه فما أطم مصيبتك وما أعظم العزاء فيك، حين فتشت الخلق بمعيارك، وكلتهم بمكيالك، وفضلت نفسك على الجميع، إذ لا سبب لإنكارك إن صح أنك تخيلت أنه لن يرزق أحد ما لم ترزق، أو يخص من المعرفة ما لم تخص، فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقبله لا يخرج منه، وما اطلع عليه لا يغيب عنه، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا في حال نومه وشغله، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء وثبت في قلبه حاله، أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده في شغله ونومه كما لا يفقده في يقظته وفراغه، ولهذا - والله أعلم - إذا رأي الولي المتمكن في رتبة الصديقين مخلوقًا كان حيًا أو جمادًا صغيرًا أو كبيرًا لم يره من حيث هو هو، إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة وميزة بالإرادة على سابق العلم القديم، ثم أدام القهر عليه في الوجود، ثم لما كانت الصفات المشهودة آثارها في المخلوقات ليست لغير الموصوف الذي هو الله عز وجل بل له، ألهت الولي عن غيره وصار لا يرى سواه، ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر في سر القلب وخير المعرفة، ولا بالإدراك في ظاهر الحس دون ما كان موجودًا به وصار عنه فانيًا، فبعد هذا على من أصحبه أن لا يحتاج إليها مع هذا الوضوح، ولا فهم إلا بالله، ولا شرح إلا منه، ولا نور إلا من عنده، وله الحول والقوة وهو العلى العظيم.

(فصل) وأما معنى (إفشاء سر الربوبية كفر) فيخرج على وجهين، أحدهما: أن يكون المراد به كفرًا دون كفر، ويسمي بذلك تعظيمًا لما أتى به المفشى وتعظيمًا لما ارتكبه، ويعترض هذا بأن يقال: لا يصح أن

يسمي هذا كفرًا لأنه ضد الكفر؛ إذ الكفر الذي سمي على معناه ساتر، وهذا المفشي للسر ناشر، وأين النشر والإظهار من التغطية؟ والإعلام من الكتم؟ واندفاع هذا هين بأن يقال: ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر وارتكاب النهي، فمن رد إحسان محسن أو جحد نعمة متفضل، فيقال عليه كافر لجهتين: إحداهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسمًا ينبئ عن وصف، والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكمًا يوجب عقوبة، والشرع قد ورد بشرك المنعم فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ولا يغرنك العبارات ولا تحجبك التسميات، وتفطن لخداعتها، واحترس من استدراجها، فإذًا من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره، وفي مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار، يدل على ذلك من جهة الشرع قوله ﷺ: «لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم» وفي ارتكاب النهي عصيان، ويمسي في الباب القياس المذكور كفران البدن، وقسمة أخرى: وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء، فرأس الإنسان تشابه سماء العالم من حيث إن كل ما علا فهو سماء، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضيء بها، والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح فيضيء مسلك المدركات، وروح الإنسان مشابهة للشمس، فضياء العالم ونور نباته وحركة ضواريه وحيوانه وحيتانه فيها تظهر بتلك الشمس، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نمو أجزاء بدنه ونبات شعره وحلول حياته، وجعلت الشمس وسط العالم وهي تطلع بالنهار وتغيب بالليل، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان وهي تغيب بالنوم وتطلع باليقظة، ونفس الإنسان تشابه القمر من حيث إن القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح، والقمر خالف الشمس، والروح خالف النفس، والقمر آية ممحوة، والنفس مثلها، ومحو القمر في أن لا يكون ضياؤه منه، ومحو النفس في أن ليس عقلها منها، ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف، وتعترى النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول، وفي العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان، وفي الإنسان نبات وهو الشعر، ومياه وهو العرق والدموع والريق والدم، وفيه جبال وهي العظام، وحيوان وهي هوام الجسم فحصلت المشابهة على كل حال، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ما هي لنا غير معروفة ولا معلومة كان في استقصاء مقابلة جميها تطويل، وفيما ذكرنا ما يحصل به لذوى العقول تشبيه وتمثيل.

فإن قلت: أراك فرقت بين النفس والروح، وجعلت كل واحدة منهما غير الأخرى، وهذا قلما تساعد عليه، إذ قد كثر الخلاف في ذلك، فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على ما يعلم لا على ما يجهل، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنتان فإن قلت: فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد، وقلت في هذه الإجابة: إن النفس من أسماء الروح، فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن، وذلك أن لها معنى يسمي بالروح تارة وبالنفس أخرى، وبغير ذلك، ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ولا يسمي بروح ولا غير ذلك، فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التى في ضمير صورته، والوجه الآخر: وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به؛ فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر سميع بصير عالم مريد متكلم فاعل وخلق آدم عليه السلام حيًا قادرًا عالمًا سمعيًا بصيرًا مريدًا متكلمًا فاعلاً، وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة مكنونة مخلوقة مقدرة بالفعل وهي لله تعالى مضافة باللفظ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم

إلا في الأسماء التى هي عبارة تلفظ فقط، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء الملفوظ بها لا غير، وفرارًا أن نثبت صورة لله تعالى ويطلق عليها حالة الوجود؛ فافهم هذا فإنه من أدق ما يقرع صدرك ويلج قلبك ويظهر لعقلك؛ ولهذا قيل لك: فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود تكن مشبها مطلقًا ومعناه أن نتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين وأنك قد حكمت على نفسك بالتشبيه معتقدًا ولا تنكر، كما قيل: كن يهوديًا صرفًا وإلا فلا تلعب بالتوراة: أي تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب إليهم: أي تقرأ التوراة ولا تعمل بها. وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة منزهًا مجللاً ومقدسًا مخلصًا: أي ليس تعتقد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعاني، فتلك المعاني المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال. وقد حفظ عن الشبلي رحمة الله عليه في معني ما ذكرنا من هذا الوجه قول بليغ مختصر، حين سُئل عن معنى الحديث فقال: خلقه الله على الأسماء والصفات لا على الذات.

فإن قلت: فكذا قال ابن قتيبة في كتابة المعروف بتناقض الحديث حين قال: هو صورة لا كالصور، فلم أخذ عليه في ذلك؟ وأقيمت عليه الشناعة به؟ وأطرح قوله ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق؟ فاعلم أن الذي ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضًا عنه وأبلغ في الإنكار وأبعد الناس عن تسويغ قوله، وليس هو الذي ألمنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا، وذهلت عن تعقل مرادنا، ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات، وهو أثبتها حالة للذات؟ فأين من لب الجوز قشوره تفرقع؟ والذي يغلب على الظن في ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف، وعلاه الدهش فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو موجب عند ذوى القصور تشبيهًا وبين التأويل الذي ينفيه، فأثبت المعنى المرغوب عنه، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه فلم يتأت له اجتماع ما رام ولا نظام ما اقترف، فها هو صورة لا كالصور، ولكل ساقطة لاقطة، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه.

(فصل) ومعنى قاطع الطريق ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب، فإنك على هداية ورشد والوادي المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام مع الله في الوادي، وإنما تقدس الوادي بما أنزل فيه من الذكر، وسمع كلام الله تعالى، وأقيم ذكر الوادي مقام ما حصل فيه، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه؛ وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول، إذ المواضع لا تأثير لها، وإنما هي ظروف.

(فصل) ومعنى ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ [طه:١٣] أي سر بقلبك لما يوحي، فلعلك تجد على النار هُدى، ولعلك من سرادقات العز تنادي بما نودي به موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢] أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد وحوادث الصدق وثمار المعارف وارتياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول، وسر القلب كما يقال أذن الرأس، ووسع الأذن، ما يوحي أي ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك. أو إلقاء في روع، أو مكاشفة بحقيقة، أو ضرب مثل، مع العلم بتأويله. ومعنى (لعلك) حرف ترويح، ومعني لم تدرك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال: أو إضافة دعوى إلى النفس أو قنوع بما وصلت إليه واستبداد به عن غير.

وسرادقات المجد: هي حجب الملكوت، وما نودي به موسى: هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له: يا موسى ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] والمنادي باسمه أزلاً وأبدًا هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود في كلام الله تعالى في أزل الأزل قبل أن يخلق موسى، لا إلى أول، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما يتغير هو إذ ليست صفاته المعنوية لغيره، وهو الذي لا يحول ولا يزول، وقد زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة وعياذا بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب؟ أليسوا وهم يعرفون أن كثيرًا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانًا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملاً عظيمًا وحباه حباءً خطيرًا، وهو ينادي باسمه أو بأمره بما يتمثل من أمره. ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى لم يشارك المولى المخلوع عليه والمفروض إليه في شيء مما ولي وأعطى، ولم يجب له بسماعه ومشاهداته أكثر من حظوة القربة وشرف الحضور ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض إليه الأمر ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل في طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذي يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم؛ فلا يمتنع أن يسمع ما يوحي لغيره من غير أن يقصد هو بذلك؛ إذ هو محل سماع الوحي على الدوام وموضع الملائكة، وكفي بها أنها الحضرة الربوبية، وموسي عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودًا بذلك بحلوله في هذا المقام الذي هو المرتبة الثالثة فقط. بل هو قد استحقق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقي به إلى ذلك المقام أضعافًا فجاوز المرتبة الرابعة، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء، وموسي عليه السلام نبي مرسل، فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون في أطرافه، لأن هذا المقام الذي هو المرتبة ليست من غايات مقامات الولاية بل هو إلى الثالثة مباديها أقرب منه إلى غايتها، فإن لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها والطعن على أهلها، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه، محاسب بظنه ويقينه، مكتوب عليه خطراته، محفوظ عليه لحظاته، مخلصًا منه يقظاته وغفلاته، فـ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

فإن قلت: أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ونداء كلامه، والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة في التفضيل، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ممن ليس بنبي ولا رسول، وإذا بان السبب وقصد بادر الشك العارض في مسالك الحقائق فنقول: ليس في الآية ما يرد ما قلنا ولا يكسره، لأن ما أوجبنا أنه كلمه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدًا. وإنما قلنا: يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه، أليس من يسمع كلام إنسان - مثلاً مما يتكلم به - غير السامع فيقال فيه: إنه كليمه؟ وقد حكى أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي خاطب به موسى حين كلمه، ثم إذا ثبت لم تجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالته، على أنا نقول: نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن الاختلاف فيه، فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى الذاتي القديم بلا حجاب في السمع ولا واسطة بينه وبين القلب، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة مما يلقي في روعه ومما ينادي في سمعه أو سره وأشباه ذلك، ذكر أن قوم موسى عليه السلام حين سمعوا كلام الله

سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتًا كالشبور - وهو القرآن - فإذا صح ذلك فبتباين المقامات اختلف ورود الخطاب فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذي هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ولا أصوات، والذين كانوا معه أيضًا سمعوا صوتًا مخلوقًا وجعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم، وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضروري، وسمي ذلك الذي سمعوه كلامه؛ إذ كان دلالة عليه كما تسمي التلاوة وهي الحروف المتلو بها القرآن: كلام الله تعالى؛ إذ هي دلالة عليه.

فإن قلت: فما يبقي على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذي يستفيد منه معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه وفهم مراده وحكمه يلحقه العلم الضروري فيما أري بأنه الشيء المرسل إلا أن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ولو كان عوضًا منه أخر عنه ومقامه مقامه؟ فاعلم أن الذي أوجب عثورك ودوام ذلك واعتراضك على العلوم بالجهل وعلى الحقائق بالمخايل أنك بعيد عن غور المطالب، قعيد في شرك المعاطب، قعيد صوب الصوت عتيد صحب السحاب، إن الذي استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة والتي هي سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به، وبين من لا يستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما مما يوجب نفورًا وتباين ما بينهما. فإن فهمت الآن وإلا فقد عنى لا ندر بحبال.

فإن قيل: ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وسماع الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب؟ فكيف يطلع عليها من ليس برسول؟
قلنا: في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الصورية، وهي أن يكون معناه: إلا من ارتضي من رسول ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة، أو عمل بما جاء به النبي؛ لأن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» [(١)] وهل يبقي إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه وقال: (إن يكن منكم محدثون فعمر) [(٢)] أو كما قال: (المؤمن ينظر بنور الله) وفي القرآن العزيز: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به وأراد به وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبيًا ولا رسولاً وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية وصدقه فيه حين قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨] وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول، وهو خلاف المسطور في الآية، وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين، وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب، وأورد أنه يجوز على عمر التشبه بالحقائق، فما يصنع فيما جرى للخضر وما أنبأه الله سبحانه وأظهره عليه من العلوم الغيبية وهو بعد أن يكون نبيًا فليس برسول على الوفاق من الجميع، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧].

---

(١) البخاري تعليقًا في العلم. وموقوفًا علي الإمام بلفظ: «حدثوا الناس بما يعرفون اتحبون أن يُكذب الله ورسوله».

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٢٧)، وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه.

فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم، وانظر إلى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه أنه يري الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله، وشواهد الشرع كثيرة جدًا تُعجز المتأول المعاند. هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة، ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها: ملك الوحي الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب، فمتى لم يرسل الله ملكًا بإعلام غيب، أو يخاطب مشافهة، أو إلقاء معني في روع أو ضرب مثل في يقظة أو في منام، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل، ويكون تقدير الآية: فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضي من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام، فإنه يطلع على ذلك أيضًا. ويكون فائدة الإخبار بهذا في الآية الامتنان على من رزقه الله تعالى في علم شيء من مكنوناته، وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبعثه إليه، حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته، ويرجع إلى الله تعالى وحده، ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ويحتمل وجه آخر: وهو أن يكون معناه والله أعلم: فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضي يريد من سائر خلقه وأصناف عباده، ويكون معنى ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] أي عن يد رسول من الملائكة.

(فصل) ومعنى: ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت: ما الذي أوصله إلى مقامهم أو جاوز ذلك - وهو في المرتبة الثالثة حال المقربين ما وصل حيث ظننت - فكيف يجاوزه، وإنما خاصية من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال لكثرة التحقق بالأحوال، وخاصية من هو في رتبة القرب كثرة السؤال طمعًا في بلوغ الآمال، ومثالهما فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا في بستان: أحدهما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمار ويعلم أسماءها ومنافعها، فهو لا يسأل عن شيء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يخبر به، والثاني لا يعرف مما يرى شيئًا أو يعرف بعضًا ويجهل أكثر مما يعرف، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقي، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه، وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد، وتلك العلوم متى كانت لا تنال بالكسب وإنما تنال بالمنح، فقيل له: لا تتخط رقاب الصديقين بالسؤال، فذلك مما لا يخطر به وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به في حاله وسيرته فعساك ترزق مقامه، فإن لم يكن فتبقي على حالة القرب وهي تتلو الصديقية، فهذا معناه.

(فصل) ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى: إما إنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه ما لاق به من الأحوال ليحكم ما بقي عليه من الأعمال كما قال المصطفى ﷺ للذي سأله أن يعلمه غرائب العلم: اذهب فاحكم ما هناك، وبعد ذلك أعلمك غرائب العلم. وإما صفة انصرافه فإن نهض بالبحث ورجع بالتذكر، وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام في ذلك الموضع بعد وصوله إليه، فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ومسكنه عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن في العادة، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال، والله تعالى أراد عمارة الدنيا وقد سبق في عمله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب :٦٢] ومعنى قول أبي سليمان الداراني: ولو وصلوا ما رجعوا، ما رجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص والذي طمع الناظر في الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه، إذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله.

(فصل) ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبًا ولا أكمل صنعًا، ولو كان ادخره مع القدرة كان ذلك بخلًا يناقض الكرم الإلهي، وإن لم يكن قادرًا عليه كان ذلك عجزًا يناقض القدرة الإلهية، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارًا وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم، ويقال: ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا. وما الفرق بينهما؟ وذلك لأن تأخيره بالعالم قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل، فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقضيه الحكمة التى عرفناها أنها حكمة، ولم تعرفنا بذلك إلا لنعلم مجارى أفعاله ومصادر أموره، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه بعلمه وإرادته وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ونهاية الإتقان ومبلغ جودة الصنع، ليجعل كمال ما خلق دليلًا قاطعًا وبرهانًا على كماله في صفات جلاله الموجبة لإجلاله، فلو كان ما خلق ناقصًا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود متى خلقه كما يظهر على ما خلقه على غير ذلك، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من النقصان قطعًا، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظنًا، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهومًا، وعرفهم ما أكن، وكشف لهم ما حجب وأجن، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه، فتعالى الله رب العالمين الملك الحق المبين، وأيضًا فلا يعترض هنا ويتزر به إلا من لا يعرف مخلوقاته ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابه ذلك أصلًا في العلم، أو كان نسخًا له، ومعنى نقيس عليه غيره، وأما انكشافه بخبر ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخبر، إذ أفشاه لغير أهله وأهداه لمن لا يستحقه، كما روى عن عيسى على نبينا، وعليه السلام: لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير. إنما أراد قطع العلم عن غير أهله، وقد جاء. لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها. وأما سر العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة، بطلت الأحكام في حقها لمن يطلع عليه في ذلك السر من معرفه مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور، فمن عرف نفسه مثلًا أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتعب نفسه في خير، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كمل انهماكه فلا يحتاج إلى تعب زائد ولا تصبيه مكابدة، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه. وإن كان كشفها من مخبر استروح الضعيف إلى ما يسمع من ذلك فيتعطل وينخرم حاله وينحل قيده، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لا على ما يوجد، ولذلك جعله مقرونًا بحرف (لو) الدال على امتناع الشيء لامتناع غيره، كما يقال: لو كان للإنسان جناحان لطار، ولو كان للسماء درج لصعد عليها، ولو كان البشر مَلَكًا لفقد الشهوات، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم.

(فصل) وأما خطاب العقلاء للجمادات فغير مستنكر؛ فقديمًا ندب الناس الديار وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار. وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير. وفي حديث النبي ﷺ: «اسكن أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» وقال بعضهم: اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها وفجر بحارها وفتق أهواءها ورتق أحواءها وأرسى جبالها، إن لم تجبك صراحةً أجابتك اعتبارًا، وإنما الذي يتوقف على الأذهان ويتحير في قوله السامعون وتتعجب منه العقول: هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات؛

ففي هذا وقع الإنكار واضطراب النظار، وكذب في تصحيح وجوده ذو السمع من الاعتبار، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ممن لم يعقل عنه في المشهود يكون على جهات: من ذلك سماع الكلام الذاتي كما تتلقي من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات، كحنين الجذع للنبي ﷺ، وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مبعثه. ومنها تلقى الكلام في حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس، ويعترى هذا سائر الحواس، كمثل ما يسمع النائم في منامه من مثال شخص من غير مثال، والمثال المرئي للنائم ليس له وجود في سمعه. وأما ما يجده غير النائم في اليقظة فمنها خاصة وعامة، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادى المسلم: يا مسلم، خلفي يهودي فاقتله وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقًا ويذهب عنه معنى الحجرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستتر عن الأبصار في العادة من الملائكة والجن أو يكون كلام يخلقه الله عز وجل في أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودي حتى يقتله، وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص وفي الخلائق مثل اسم المنادى به كثير وقد قال العلماء: إنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلف للمنادى في حساسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشارك في اسمه ولا يكون نداء من خارج والأمثلة كثيرة في الشرع، وفيما سمعت غنية ومقنع. ومنها تلقي الكلام في العقل وهو المستفاد بالمعرفة، المسموع بالقلب، المفهوم بالتقدير على اللفظ، المسمى بلسان الحال كما قال قيس:

وأجهشت للتوباذ حين رأيته ... وكبر للرحمن حين رآني
فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك في عيش وخفض زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

وفي أمثال العوام قال الحائط للوتد: لم تشقني؟ فقال الوتد للحائط: سل من يدقني. فلو كانت العبارة تتأتى منها ما عبرت إلا بما قد استعير لها. وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارًا عن السماء والأرض حين قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله ﷺ: (كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عباءتان قطوانيتان يلبى وتجيبه الجبال، والله يقول: لبيك يا يونس) فقوله: (كأني) يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها في الحال وجود ذاتى، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات وتلك الحالة منه سلفت، وفي هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالى في البصر، والوجود الخيالى في السمع، ومنها تلقى الكلام بالشبه: وهو أن يسمع كلامًا أو صوتًا من شخص حاضر فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى الأشعري إذ سمعه يترنم بالقرآن: «لقد أعطى مزمارًا من مزامير آل داود» ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت. وإنما شبه صوته بها، وكما إذا سمع المريد صوت مزمار أو عود فجأة على غير قصد يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها بما فجأ صوته من ذلك، فهذه مراتب الوجود فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ولم يعترك غلط في بعضها ببعض، ولا اشتبهت عليك، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد، وقد رآه اسود وجهه بالحبر فقال له: ما نال وجهك وقد كان أبيض أشقر مونقًا والآن قد ظهر فيه

السواد، فلم سودت وجهك؟ فقال: سل الحبر، فإنه كان مجموعًا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلمًا وعدوانًا، فقال: صدقت. ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمل الفكر وحدد النظر وحل الكلام إلى أجزائه التي ينتظم بها جملة ما بلغت؛ فسأل عن معنى الناظر، ومعنى المشكاة، ومعنى نور الله سبحانه، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب؟ وبأي لسان خاطب الكاغد، وكيف مخاطبة الكاغد وهو ليس من أهل النطق؟ وفيما صدق الناطق الكاغد؟ ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد فيبدو لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فيما أورده عليه الحس، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة التي أعمرت بسراج النار، إلى خبر المعرفة الملقب بسر القلب شبيهًا بها، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى أشعلها بنوره، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة بإذن الله تعالى بظلم جهالات القلوب، ووجه لاضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف، والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما، وجعلهما مبدأ طريقه وأول سلوكه إذ هما في عالم الملك والشهادة الذي هو محل جولة الناظر في حال نظره. وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب، فلأجل أنه أميًا لا يقرأ الكتاب الصناعي، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهي الذي هو أبين وأدل على الفهم منه. وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو جماد فسبق الكلام على مثله، ومراجعة الكاغد له فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادًا، فيلقى الكلام في الحس بما ينبئه عن المطلوب من الحق، وهو من باب الإلقاء في الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة، وإن كان مريدًا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة والعقل، وتصديق الناظر للكاغد في عذره وإحالته على الحبر لم يكن لمجرد قوله، بل بشهادة أولى الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تكن وشهادة النفس، وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها سئل عن أجزاء عالم الملك. وأما ما سمعته في حد عالم الجبروت فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل والعلم الموجودين في الإنسان المستقرة في القوة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعى وجوده جسمًا، ولكن قد يعرض له أنه في جسم، كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتتبع العطف وتنفر من العداوة. وأما ما سمعته في حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهي إلى ما رواء ذلك مما هو داخل فيه ومعدود منه، فسر القلب الذي يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره، فأما أي شيء حقائق هذه المذكورات، وما كنه كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة، فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة، والله قد عرفك بأسمائها؛ فإن كنت مؤمنًا فصدق بوجودها على الجملة لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات. ومن كفر فإن الله غنى حميد.

(فصل) والفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت: أن العلم قد اعتقدته مجسمًا بطيء الحركة بالفعل، سريع الانتقال بالهلاك مخلفًا عن مثله في الظاهر، مجعولاً تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل في أكثر أوقاته، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والعدل والظلم والشك والصدق والإفك؛ فالعلم الإلهي عبارة عن خلق الله في عالم الملكوت، مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة في عالم الملك، يرى من أوصاف ما سمي به القلم المحسوس كليًا مصرفًا

بتميز الخالق بحكم إرادته على ما سبق علمه في أزل الأزال، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ما سمي به، غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق، والفرق بين يمين الآدمي ويمين الله عز وجل أن يمين الآدمي كما علمت مركبة من عصب استعصى بقاؤها، وعضل تعضل أدواؤها، وعظام يعظم بلاؤها، ولحم ممتد، وجلد غير جلد موصولة، كمثلها في الضعف والانفعال ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال، ويمين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرته وليست بجارحة ولا جسم، وعند آخرين. إنها عبارة عن خلق لله هي واسطة بين القلم الإلهي الناقش العلوم المحدثة وغيرها، وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهي المثبت على صفحات المخلوقات الذي ليس بعربي ولا عجمي، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدروهم، وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم، ولم يشارك يمين الآدمي إلا في بعض الأسماء لأجل الشبه اللطيف الذي بينهما بالفعل، وتقريبًا إلى كل ناقص الفهم، عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر.

(فصل) وحد عالم الملك؛ ما ظهر للحواس ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وصحة التعبير. وحد عالم الملكوت ما أوجده سبحانه بالأمر الأزلي بلا تدريج ويبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه. وحد عالم الجبروت وهو ما بين العالمين مما يشبه أن في الظاهر من عالم الملك فحيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت.

(فصل) ومعنى أن الله خلق آدم على صورته: فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ وللعلماء فيه وجهان فمنهم من يرى للحديث سببًا وهو أن رجلًا ضرب غلامه فرآه النبي ﷺ، فنهاه وقال: (إن الله تعالى خلق آدم على صورته) وتأولوا عود الضمير على المضروب وعلى هذا لا يكون للحديث مدخل في هذا الموضع لم يرده مورد آخر في غير هذا الموطن، ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث، وإثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر، فليبق المسبب على حاله، ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل، ويحسن الاحتجاج به في هذا الموطن، والوجه الآخر: أن يكون الضمير الذي في (صورته) عائدًا إلى الله سبحانه، ويكون معنى الحديث: إن الله خلق آدم على صورة هي إلى الله سبحانه، وهذا العبد المضروب على صورة آدم، فإذًا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة وعلى أي جهة يحمل في الاعتقاد العمى على الله سبحانه، ففيها وجهان: أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة واليمين على أحد الأوجه، والوجه الآخر: أن تكون إضافة تخصيص به تعالى، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر، لكنه مختصر صغير، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله، وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلا شك متشابهتان، فالذي نظر في تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك، فوجد كل نحوين منهما شبيهين، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين: أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك، والثاني: باطن معقول كعالم الملكوت، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة، وإلى باطن كالروح والعقل والعلم

والإرادة والقدرة وأشباه ذلك، وقسم آخر: وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك وهو الظاهر للحواس، وإلى عالم الملكوت وهو الباطن في العقول، وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منهما، والإنسان كذلك انقسم إلى ما شابه هذه القسمة، فالمشابه لعالم الملك: الأجزاء المحسوسة وقد علمتها، والمشابهة لعالم الملكوت: فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشباه ذلك، والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه. والوجه الثاني: أن يكون معناه كفرًا للسامع لا للمخبر، بخلاف الوجه الأول، ويكون هذا مطابقًا لحديث النبي ﷺ: «لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم، أتريدون أن يكذب الله ورسوله» [1] فمن حدث أحدًا بما لم يصله عقله ربما سارع إلى التكذيب وهو الأكثر، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها فقد كفر ولو لم يقصد الكفر؛ فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها وهي كفار بلا ريب؛ وهذا وجه واضح قريب، ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين في العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذي هو نقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره وتلحق قائله، وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء الذين يكفرون بالمعاصي، وأهل السنن لا يرضون بذلك. وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذي ينزه به والعمل الذي يقصد به المتعبد لوجهه الذي يستزيد به إيمانًا ومعرفة له سبحانه، ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد وينيله ما شرف من المنح ويريه أعلام الرضا، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنبذه وإطراحه وتركه واعتقاد ما لا يتم الإيمان معه ولا يحصل بمقارنته، وليس في إفشاء سر الولي ما يحصل به تناقض الإيمان، اللهم إلا أن يريد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له فهذا عات متمرد وليس بولي، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله، فهو لا محالة كافر. وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] ثم إنه من سب أحدًا منهم على معنى ما يجد له من العداوة والبغضاء، قيل له: أخطأت وأثمت من غير تكفير، وأنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله ﷺ فهو كافر بالإجماع.

(سؤال) فإن قيل: فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى ونسب إليه: للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام. وجاء في الإحياء على أثر هذا القول، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة في حق الضعفاء فما قالوه ليس بحق، فإن الصحيح لا يتناقض والكامل من لا ينطفئ نور معرفته ونور ورعه، وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق منها بما فرع من الكلام فيها آنفًا وناظر إليه، إذ ما أدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم: كفر، فالجواب؛ إن الذي قاله رحمه الله وإن كان مستعجمًا في الظاهر فهو قريب المسلك، باد للمتأمل الذي يعرف مصادر أغراضهم ومسلم أقوالهم الإلهية. ومن وصل إليه اليقين الذي لولاه لم يكن نبيًا لا يخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التي هي غائبة عنها بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلاح والحيرة والتيه ما يبهر العقول ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا وما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥)، وأبو داود (٤٦٥١) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه-.

فيها وذلك لضعفه. ومن انتهي إلى هذه الحالة تبطل النبوة في حقه أن يعرفها أو يعقل ما جاء من قبلها، إذ قد شغله عنها ما هو أعظم لديه منها، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه، كما حكى أن شابًا من سالكي طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل، فلما رآه انكشف له ذلك وكان في مقام الضعفاء من المريدين فلم يطق حمله فمات به، وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه، فتبطل النبوة في حق المخبر حين نهى أن لا يفشي فأفشى أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي ﷺ فيها، فلهذا قيل في ذلك: بطلت النبوة في حقه.

فإن قيل: فلم لا تكفروه على هذا الوجه إذا بطلت النبوة في حقه بإخباره؟ قلنا: ما بطلت في حقه جميعًا، وإنما بطل في حقه منها ما خالف الأمر الثابت من قبلها، ويعد هذا من الكلام على تغليظ حق الإفشاء وقد سبق الكلام عليه في معنى إفشاء سر الربوبية كفر. وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له بالأمر المتوجه عليه بطلبه والبحث عنه والتفكر فيه، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء أو وقعت له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك، أو ضرب مثل يفهم عنه، أو اطلاع على اللوح المحفوظ، أو إلقاء في روع فيعود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها، ولا عرف خواصها ولا تنزه في عجائبها ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم وأن النار أقصى العذاب الأليم، وأن النظر إليه منتهى الكرامات، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات، وأن منح المعارف والعلوم أسمى الهبات، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هو نفي محض، إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح، وقدره منازل وجعله الميقات، فمن حي وميت، ومتحرك وساكن، وعالم وجاهل، وشقي وسعيد، وقريب وبعيد، وصغير وكبير، وجليل وحقير، وغني وفقير، ومأمور وأمير، ومؤمن وكافر، وجاحد وشاكر، وذكر وأنثى، وأرض وسماء، ودنيا وأخرى، وغير ذلك مما لا يحصي، والكل قائم به موجود بقدرته، وباق بعلمه ومنته إلى أجله، ومصرف بمشيئة، وذلك على بالغ حكمته، فما أكمل جهل من لا يجد به إلا قدماه، ولا من يصرفه إلا استبداده، ولا ملكه إلا ملكه، فيعود المحدث قديمًا والمربوب ربا والمملوك مالكًا، فيعود الخلق من خلق الله كهو، تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخييل المعتوهين، وزيغ الزائغين.

(فصل) وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ورقى هذه الدرجات واستفهام هذه المخاطبات، أهي من قبيل الواجبات والمندوبات أو المباحات، فاعلم أن المسئول عنه على ضربين، أحدهما: ما هو في حكم المبادئ، والثاني في حكم الغايات، فأما الذي في حكم المبادئ فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع، وجميع ما يقدر عليه من العبادة، وذلك ما تضمنه أصول علم المعاملة، مثل إخلاص التوحيد والصدق في العمل وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر؛ لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] وقد سبق التنبيه عليه. أما الذي هو حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معاني التوحيد وسير معاني التقرير وأوصاف أهل

أبيان اليقين، فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال: ارجع ولا تتخط رقاب الصدّيقين، ولكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته، وهي مراتب الصدق في العلم وبركات الإخلاص في العمل، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني، فليس في شيء من الحقيقة وإن كان حقًّا، غير أن حاله معلول. إما مفتون بدنياه، أو محجوب بهواه، وربك على كل شيء قدير.

(فصل) وأما لأي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات، والرموز دون التصريحات، وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كلف ويتلو من بعيد ولكن للعلم رجال مخصوصون، فما بال من لم يجعل سارعًا ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك.

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي ﷺ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعلمه، ويحل فيه كمحله والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٤-٦] وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه، فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله، وما لم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهاده، فإن أخطأ كان له أجر، وإن أصاب كان له أجران، ثم إن الوارث رأي النبي ﷺ يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فلم يكن للوارث تعد عن حكم الموروث، كما حكي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أني رويت عن رسول الله ﷺ وعائين أحدهما هو الذي بثثته فيكم، وأما الثاني فلو بثثته لحززتهم السكين على هذا البلعوم وأشار إلى حلقه، وبعد كل شيء: ففي القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة. وفي اتباعه الفوز بحب الله، ويد الله مع الجماعة، وفوق كل ذي علم عليم، وقد أفدناك من طرائف ما عندنا، وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا؛ وإلى الله يرد العلم مما دق وجل، وكثر وقل، وعظم وصغر وظهر واستتر، وإنما ينطق بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه، إذ كل ميسر لما خلق له؛ فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر بقراءة السبع المثاني والقرآن العظيم التى أمرت بقراءتها في كل صلاة، وكذا عليك أن تعيدها في كل ركعة، وأخبرك الصادق المصدوق ﷺ أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلها وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد، وخصت به من الذخائر والعوائد، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له، واعرف ما أعد لك، والله تعالى سبحانه حسيب من أراده، وهادي من جاهد في سبيله، وكاف من توكل عليه، وهو الغني الكريم.

انتهي الجواب عما سألت عنه، وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام، ونسأل الله تعالى المباعدة بين حيلات قلوب البشر، وأن يصرف عنا حجب الكدورات والأهواء ومراتب الغين، فبيده مجارى المقدرات وهو إله من ظهر وغبر، وإليه يرجع من آمن وكفر، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافي الضرر وعلى آله السادات الغرر، وسلم تسليمًا، والحمد لله رب العالمين.

تم كتاب الإملاء في مشكلات الإحياء

الفهرس